

الكشوف الأثرية وأثرها في كتابة التاريخ القديم

١ - مقدمة :

ظل الشرق القديم غارقاً في ظلام دامس مليئاً بالأسرار قروناً عدة لا يعرف الناس عنه إلا ما وصل إليهم من بعض الكتاب الاغريق والرومان وما ورد عنه من قصص ديني في كتاب « العهد القديم » .

ومنذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد أخذ بعض المفكرين من الاغريق يتجولون في بلاد الشرق القديم وكانت بابل إذ ذاك قد كبت كبتها الأخيرة وأفل نجمها كما كانت مصر في النزاع الأخير بعد أن وقعت فريسة للحاحفل الفرس وسادت فيها الفلال والاضطرابات وعمتها موجة من اليأس كنتيجة لاضمحلال نفشى في كل ركن من أركان النشاط الحضري فيها وتعارف المؤرخون على تسمية هذا العصر باسم النكسة الأخيرة .

ولم يبق للمصريين إبانها إلا التحدث عن ماضيهم الطويل المملوء بالحكمة والأسرار يشيرون إلى ما تبقى من معابد وقصور ومقابر كدليل مادي على صحة ما يدعون وعكف كهانهم على التحدث عن ملوكهم الذين فنوا منذ قرون مترنمين بأعمالهم وبسالتهم وجبروتهم - حدث هذا عندما انتقل مركز الثقل في السياسة الدولية إلى بلاد الاغريق وأصبح اليونانيون يسيطرون على الميزان الدولي بعد أن قفزوا ببلادهم إلى الصفوف الأولى فما لبثت أن تولت علم القيادة .

في ذلك الوقت خرج نفر من الاغريق يتجول في ربوع بلدان الشرق الأدنى يدفعهم إلى ذلك حب الاستطلاع من ناحية والبحث عن الأصول الأولى للحضارة الاغريقية من ناحية أخرى . ولعل أقدم الذين تجولوا في الشرق وكتبوا عنه وخصوصاً مصر بالجانب الأكبر من عنايتهم كان هيكاتيوس الملطي الذى عاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد وزار مصر حوالى عام ٥٢٠ ق . م .

وزعم أنه اتصل بالمصريين واستساخ الحياة بينهم وأحب ديانة آمون وفهم أسرارها وعاش فترة طويلة بين كهنة هذا الإله (١). ثم أعقبه هيرودوت وزار معظم بلدان الشرق القديم حوالى عام ٤٣٠ ق. م. ودون معلوماته التى حصل عليها ومشاهداته فى موسوعة من تسعة أجزاء (٢) على أن هذه الموسوعة التاريخية كانت مستقاة بطبيعة الحال من مصادر متعددة تصف حضارات لا يعرف المؤلف لغاتها ، فضلاً عن أن كتابة التاريخ فى ذلك الوقت لم تكن تتجنى نحو استقصاء الحقائق وإنما كانت فناً أدبياً خالصاً هدف المؤرخ فيه أن يضيف إلى رواياته كل ما من شأنه أن يفتن الجمهور ويثير فيه حب الاستطلاع. ونسمع كذلك أن أفلاطون وفد إلى مصر فى أواخر القرن الرابع مستعيناً بشحنة من الزيت لتغطية تكاليف السفر والإقامة وأنه تحمل مشاق الرحلة فى سبيل التعرف على الحكمة المصرية والتعمق فى أصول الديانة والعلوم المصرية (٣). ويجب ألا ننسى مانيتون السمنودى (٤) الذى عاصر بطليموس الثانى حوالى عام ٢٨٠ ق. م. وكتب تاريخاً لمصر باللغة الإغريقية حاول فيه أن يلتزم الصدق ما أمكن معتمداً اعتماداً كبيراً على الوثائق والأسانيد وإن لم يصلنا منه للأسف غير مقتطفات قليلة. — ونعرف مما كتبه ديودور الصقلى (٥) أنه خصص كتبه الستة الأولى لتاريخ العالم حتى الحروب الطروادية ثم تناول فى الكتب الأحد عشر التالية تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى وفاة الاسكندر الأكبر فى حين تروى كتبه الثلاثة والعشرون الأخيرة قصة العالم من وفاة الاسكندر إلى عام ٥٩ ق. م. وقد خصص كتابه الأول لتاريخ مصر والثانى لتاريخ آشور والهند وبلاد العرب والثالث لتاريخ بلاد الحبشة — ثم سترابون (٦) الذى يظن

(١) Edward Meyer : "Geschichte des Altertums" I, 2 (fünfte Auflage), Seite 10-11.

(٢) وهيب كامل . « هيرودوت فى مصر — القرن الخامس قبل الميلاد » (دار المعارف) .

(٣) Wilhelm Schubart : "Die Griechen in Aegypten" (Beihefte zum "Alten Orient") Heft 10 Seite 7-8.

(٤) Eduard Meyer : "Geschichte des Altertums" I, 2. (fünfte Auflage) Seite 12-17.

(٥) وهيب كامل « ديودور الصقل فى مصر » (دار المعارف) .

(٦) وهيب كامل « سترابون فى مصر » (مكتبة الأنجلو المصرية) .

أنه وفد إلى مصر مع صديقه جاليلوس حوالي عام ٢٥ ق.م فعاش في الاسكندرية حيناً ثم زار آسيا الصغرى وبلاد اليونان وبلاد ما بين النهرين وكتب سبعة عشر كتاباً خصص منها الأحد عشر كتاباً الأولى لبلدان أوروبا وبدأ في الكتاب الثاني عشر بوصف آسيا الصغرى ثم وصف في الكتاب الخامس عشر الهند وفارس في حين دار كتابه السادس عشر حول وصف الجزء الجنوبي الغربي من آسيا فتناول بالحديث بلاد ما بين النهرين وسوريا وفينيقيا وفلسطين وبلاد العرب . أما مصر وبلاد الحبشة فقد خصص لهما الكتاب السابع عشر — وأخيراً نذكر بلوتارك (١) الذي عاش في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد وكان قد استقر فترة طويلة في مصر وعاشر أهلها وكتب عن عقائدهم وخاصة كتابه المشهور عن عقيدة اريس وأزوريس .

هؤلاء جميعاً حضروا إلى مصر — وبعضهم لم يحضر إليها إلا بعد أن طاف ببلدان الشرق القديم ، ثم كتبوا مشاهداتهم ونقلوا إلينا ما سمعوه من أهل البلاد وظلت كتبهم هذه هي المصادر الوحيدة التي كان يتلفها من أراد العلم والمعرفة ونحن نعرف الآن ما حوته هذه الكتب من أخطاء جسام ومغالطات شتى تسببت تارة عن سوء الفهم وتارة أخرى عن جهل المصادر التي استقى منها أصحابها معلوماتهم ولست أدري مثلاً يضرب لذلك أوضح مما أتى به هيرودوت أبو التاريخ وسرف يعالج هذا الموضوع وينيه حقه الزميل الدكتور أحمد بدوي في محاضراته القادمة .

وكلما مرت السنين وتعاقت الأجيال نجد أن الماضي السحيق بما يحويه من حضارات مزدهرة ينسى ويختفي لتحل محله أو هام تقوم على الخرافة ونسج الخيال . ولأضرب لذلك مثلاً حياً يشعرنا بما كان عليه جهل الناس بحضارة مصر في العصور القديمة . هذا المثل اخترته من كتاب المقریزی حيث أسهب في ذكر الأهرام (٢) :

(١) W. Goodwin : "Plutarch's Morals" Boston 1878 Vol. 4. P. 65-139.

(٢) كتاب « الخطط » للمقریزی الجزء الأول ص ١١ .

اعلم أن الأهرام كانت بمصر كثيرة جداً منها بناحية بوصير شىء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس . وأعظم الأهرام ، الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها والسبب فى بنائها وقالوا فى ذلك أقوالاً متباينة أكثرها غير صحيح ، وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشئ ويكنى انشاء الله تعالى :

قال « ابراهيم » بن « وصيف شاه » الكاتب فى أخبار مصر وعجائبا فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب وهو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر والمنسوبين إلى شداد بن عاد - والقبط تنكر أن العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم - وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلاثة سنة قد رأى سوريد فى منامه كأن الأرض تيمد بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تنساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة فغمه هذا ولم يذكره لأحد وتسير القصة تتحدث عن سوريد هذا بن سهلوق وعن مشاعره نحو الرؤيا التى تكررت بشكل آخر وتنتهى بأن الطوفان سيحدث . ويستفسر الملك سوريد قائلاً : - هل يلحق الطوفان بلادنا ؟ - فقالوا نعم سيلحق الطوفان بلادنا ويلحق بها خراب يقيم عدة سنين . فأمر عند ذلك بعمل الأهرام وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد وملأها طلسمات وعجائب وأموالاً وأصناماً وأجساد ملوكهم وأمر الكهان فنقشوا عليها جميع ما قالته الحكماء ونقش فيها وفى شقوقها وحيطانها واسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدعيها أهل مصر وصور فيها صور الكواكب كلها كما نقش عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسراً لمن يعرف كتابتهم ولغتهم - ولما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل وباستخراج الرصاص من أرض المغرب وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام

الثلاثة الشرقى والغربى والملون وكانت لهم صحائف وعليها كتابة إذا قطع الحجر وتم لإحكامه وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ثم يعادون ضربه حتى يصل الحجر إلى الأهرام وتستمر القصة على هذه الوتيرة ثم يختتمها بأن سوريد هذا قد كتب على باب الهرم ما يأتى :-

« أنا سوريد الملك - قد أتممت بناء الهرم فى ست سنين فمن أتى بعدى وزعم أنه ملك مثلى فليهدمها فى ستمائة سنة - وإنى كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصير ... » .

ولعل هذا يعتبر مثلاً بسيطاً لما كان يسود العالم من خرافات حول الآثار القديمة من الذى بناها وكيف شيدت وليس من شك فى أن كل قطر من الأقطار القديمة كان يحاك عنه من أهله وزواره ما يماثل ما كتبه المقرئ من خرافات عن أهرامات الجيزة ، وهى إن دلت على شىء فانما تدل على سذاجة متناهية وبساطة فى التفكير .

ولعل أول البحوث الأثرية أو التنقيبات الأثرية التى عرفها العالم الحديث كانت تلك التى بدأت فى إيطاليا عام ١٧٣٨ م وذلك حين رغبت الملكة « ماريا أماليا كريستينا » إلى زوجها شارل ملك صقلية أن يتحرى أمر المكان الذى عثر فيه على روائع الفن من التماثيل البرونزية التى كانت تزدان بها قصور عظماء نابولى فى ذلك الحين . فما لبث أعوان الملك أن أنبأوه بوجوده إلى الجنوب من عاصمته وبالقرب من بركان فيزوف الذى كان قد هدأ بعد ثورة عنيفة فى عامه السابق أى فى مايو عام ١٧٣٧ . وأمر شارل أن يبدأ البحث فوراً فى المكان الذى أرشدوه إليه مكلفاً رئيس مكتبة القصر « دون مارسيللو فينوتى » بالإشراف على أعمال الحفر وبعد فترة من العمل تبين أن ذلك المكان المدفون تحت طبقة كثيفة من اللافا يبلغ سمكها ما يقرب من عشرين متراً ليس إلا أطلال مدينة قديمة تحمل اسم Herculaneum ، وسرعان ما انصرف العالم الأوروبى إلى تحرى النصوص القديمة وأخذ يراجع بشغف ما كتب عن هذه

المدينة وعن أختها الكبرى Pompei التي جاورتها في العمران ثم في الدمار حينما طمرتها الحمم التي قذف بها بركان فيزوف في ثورته الجارحة التي حدثت في ٢٤ أغسطس من عام ٧٩ ميلادية وأفنت معظم سكانها .

وانتقل النشاط في أول ابريل من عام ١٧٤٨ إلى التلال الضخمة التي تكسو مدينة بومبي وبعد مضي ستة أيام عثر المنقبون على أول لوحة مرسومة فيها وفي التاسع عشر من ابريل وجدوا أول جثة من جثث سكان بومبي الذين أفرعهم هول الكارثة فأسرعوا هاربين . ولم يكن صاحب هذه الجثة قد نسي في محنته أن يصطحب معه نقوده التي عثر على بعض منها ملقاة بجانب كفه . ومنذ ذلك الوقت عمل رجال الآثار في إيطاليا دون توقف حتى الآن على الكشف عن هاتين المدينتين .

هذه الكشوف الأثرية التي أماط عنها اللثام معول الحفار في مدينتي بومبي وهيركولانيوم في منتصف القرن الثامن عشر كانت بمثابة الشرارة الأولى التي أوقدت في نفوس الناس في العالم المتحضر جذوة حب الاستطلاع والتعرف على حضارة الأجداد في كل مكان ، وسيطرت هذه الفكرة على أفئدة الناس إلى درجة أنه حدث نوع من التسابق العجيب بين الأمم الأوروبية هدفه جمع التحف القديمة وملء المتاحف بها ، وشارك الحكومات نفر غير قليل ممن تيسرت لهم الثروة وكان هدفهم هم أيضاً أن يتفقا أمواهم على جمع التحف من كل مكان وبذلك تكونت مجموعات ضخمة من الآثار في حيازة الهواة .

وليس من شك في أن الفترة التي تلت الكشف عن آثار بومبي كانت فترة نهب وقرصنة لم يكن يستهدف الحفار إبانها إلا الاستيلاء على النفيس من التحف غير عابىء بالطريقة التي يعثر بها على هذه التحف ولا بدراسة ولو سطحية لظروف المكان أو بالخلفات الأخرى التي لا ينم شكلها على أنها قطع ذات قيمة مادية .

٢ — الكشوف الأثرية في مصر :

ويعتبر وفود نابليون بعلمائه على مصر بمثابة الشعاع الأول الذي نفذ إلى

الظلمات التي أحاطت بمصر القديمة فأضاء جانباً يسيراً من جنباتها . فكما نعلم جميعاً استصحب نابليون معه فريقاً من العلماء والباحثين وصلوا إليها في الثاني من شهر يولييه عام ١٧٩٨ وألف منهم جمعية علمية «Institut d'Egypte» عكفت على تسجيل كل ما وجدته في مصر ومن ذلك آثارها الظاهرة فوق سطح الأرض . ولقد ساعد أولئك العلماء في أداء مهمتهم رجل موهوب في فنه رسم كل شيء وقع تحت نظره وهو البارون « دينون » الذي لم يترك مكاناً في مصر لم يذهب إليه حتى بلغ أسوان ورسم المئات من اللوحات الرائعة وهو صاحب تلك الرسوم الدقيقة التي تمثل الآثار المصرية في كتاب « وصف مصر » Description de l'Egypte وهو الكتاب التي يعتبر بمثابة الدعامة الأولى التي قامت عليها دراسات « الايجيبتولوجى » ظهر هذا الكتاب في أربعة وعشرين جزءاً خلال أربع سنوات من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣ وكان لظهوره دوى هائل في المخافل العلمية بأوروبا كما أنه سلط الأضواء على مصر وجعلها منذ ذلك الحين قبلة الباحثين والعلماء والمنقبين .

على أن كتاب « وصف مصر » لم يكن بمفرده الناقوس الذي أعلن للعالم بدء موجة من البحث والاستقصاء هدفها الكشف عن حضارة المصريين القدماء وتاريخهم وإنما هناك حدث أهم وقع أيضاً إبان هذه الفترة ألا وهو العثور على « حجر رشيد » . في عام ١٧٩٩ وفي شهر أغسطس كان بعض رجال الحملة الفرنسية يقومون بحفر خندق حول قلعة « سان جوليان » بالقرب من المصب الغربى للنيل عند رشيد وعثروا على حجر من البازلت كتب على وجهه الأماوى نقش بثلاث لغات لكل منها طريقها الخاصة في الكتابة فالعليا منها بالخط « الهير وغلينى » والوسطى بالخط الشعبى الشائع في أواخر العصر الفرعونى وهو ما يطلق عليه « الخط الديموطيقى » ، وكتبت الكتابة السفلى منها بالخط اليونانى المعروف والمقروء في ذلك الوقت ^(١) ولقد عرف الناس منه أنه تسجيل لشكر كهنة منف على العطايا التي أغدقها عليهم بطليموس الخامس الذى حكم مصر

(١) أدلف إرمان وهرمان رانكه : « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كال صفحة (١ - ب) وما بعدها (لوحه ١) .

حوالى عام ١٩٦ ق . م كما ورد فى النص اليونانى أن هذا الشكر سجل بالخط المقدس وبالخط الشعبى والخط اليونانى وهكذا تبين للباحثين أن حجر رشيد يحوى ترجمة للنص اليونانى بالخطين الهير و غلىنى والديموطيقى . وتهافت الباحثون على محاولة قراءة النص الهير و غلىنى ومن أهمهم :

1. Thomas Young
2. Jean François Champollion
3. Aker Blad
4. De Sacy

وليس من شك فى أن شامبليون كان أكثرهم توفيقاً، إذ خرج على العالم بحقيقة ثابتة وهى أن « الهير و غلىفية » ليست كتابة رمزية بحتة كما اعتقد الناس من قبل (١) بل أكد أنها فى معظمها كتابة صوتية تتكون من علامات مختلفة لكل منها قيمة صوتية محددة . وعندما توفى شامبليون بعد عشر سنوات من كشفه العظيم أى عام ١٨٣٢ كان قد تمكن من أن يقرأ عدة نصوص بشكل يقرب من الحقيقة ويمكننا أن نقول أن جميع خطوات التقدم التى سارت فيها الدراسات الأثرية فيما بعد كانت تقوم على الأسس التى أقامها « شامبليون » .

وفى الربع الأول من القرن التاسع عشر هبت موجة ثانية مباركة استهدفت تسجيل النقوش والرسوم ووصف الآثار القائمة مع قليل من الكشوف المنظمة . ولقد بدأت بعثة « روسولبنى » عام ١٨٢٨ وامتد نشاطها حتى الشلال الأول (٢) ثم تلتها بعثة « ريتشارد ليبسيوس » عام ١٨٤٠ مبتدئة من الدلتا شمالاً حتى أقاصى

(١) لقد قام بعض العلماء بمحاولات شتى لتفسير علامات اللغة المصرية القديمة وكانت محاولات فاشلة بدليل أن العلامة المشهور فى وقته Athanasius Kircher قدم بحثاً شرح فيه العلامات السبعة التى يحويها أو يتكون منها لقب أباطرة الرومان : Awtkrtr مترجماً إياه كما يأتى : « أزوريس خالق قوة الحصوبة وخالق جميع النباتات وقوة تناسله تحضر من السماء المقدسة إلى دولته » .

(2) Rosellini, Ippolito : "I monumenti dell'Egitto e della Nubia, disegnati dalla spedizione scientifico-letteraria toscane in Egitto" Pisa 1832-44.

السودان جنوباً (١) . ولم يبق لبسيوس على أثر مصري قديم رآه دون أن يرسمه ويصفه وصفاً علمياً دقيقاً ، كما وفق إلى الكشف عن عدة مقابر في جبانات الحيزة وسقارة ومصر الوسطى ، ثم نشر نقوش بعثات التعدين التي أوفدها المصريون القدماء إلى مناجم شبه جزيرة سينا .

على أن فتح باب الدراسة والتنقيب في مصر لم يكن خيراً كله ولعل خيرها كان أقل بكثير من شره لأن علم الآثار في ذلك الوقت أخذ يرتدى في أحضان الدخلاء بعد أن اجتذب نفراً من المغامرين الذين اتخذوا من البحث عن الآثار مهنة للكسب والاثراء ونحن لا نتردد في وصف هؤلاء بناهي القبور ومخبري الآثار ، ويجب أن نذكر في مقدمتهم « جيوفاني بلزوني » الذي قيل انه كان يعمل في سيرك بانجلترا ثم وفد إلى مصر ليروج توزيع ماكينات للرى غير أنه مالبث أن وجد في الكشف عن الكنوز الأثرية مورداً خصباً للكسب فعمل في الحفر باسم البحث العلمي لحسابه ولحساب القنصل البريطاني فيما بين ١٨١٧-١٨١٩ (٢) ولقد أجمع الأثريون على تشبيه هذا الرجل بحرباء آدمية أما هو فقد تحدث عن نفسه في وصف جولاته بأنه كان في كل خطوة يخطوها يهشم جانباً من مومياء مصري قديم وأنه ما استقر على جثة حتى تفتت من تحته كالهشم وكان هذا بالطبع بحثاً وراء التحف .

ويبدو أن النجاح الذي أصابه بلزوني كان حافزاً للقنصل الفرنسي إذ ذاك واسمه « دروني » (٣) أن يقلده فاستأجر هو الآخر وكلاء يعملون لحسابه في

(1) Lepsius, Karl Richard : "Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien" Berlin 1849 ff ; Fünf Bande Text, Leipzig 1897 ff.

(2) Belzoni, Giovanni Battista : "Narrative of the operations and recent discoveries within the pyramids, temples, tombs and excavations in Egypt and Nubia" London 1820.

(3) Cailliaud, Frédéric ; "Voyage à l'oasis de Thèbes et dans les déserts situés à l'orient et à l'occident de la Thebaïde :

1. Le voyage à l'oasis du Dakel par M. le Chevalier Bernardin Drovetti.
2. Le journal du premier voyage de M. Cailliaud en Nubie.
3. Des recherches sur les oasis etc." Paris 1821.

التنقيب وعلى رأسهم « فريدريك كايو » وانتهى الأمر بأن أصبح التنافس بين الفريقين كثيراً ما يحسم بالسلاح . وكان « كارتر » على حق عندما وصف هذه الأعمال بأنها كانت أقرب إلى أعمال القرصنة منها إلى البحث والتنقيب . وعلى كل حال كان من نتيجة هذه الأعمال أن دخل سيل من التحف الأثرية في متاحف لندن وباريس وتورين وبرلين فضلاً عما اكتنزته المجموعات الخاصة .

على أنه ما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كانت أهم الآثار القائمة فوق سطح الأرض قد سجلت كما قطعت محاولات قراءة الكتابة الهيروغليفية شوطاً طيباً وغداً في وسع الباحثين أن يحققوا ما كتبه الرواد الأوائل من الإغريق والرومان عن الحضارة المصرية وقدمها وأخذ نفر من العلماء الممتازين يبحثون بجهد لا يعرف الملل في تلك المادة الضخمة التي وصلت إلى أيديهم في الكتب التي سجلت الآثار والتي سبق ذكرها (١) . ولقد أخذ هؤلاء العلماء ينادون لأول مرة من أنه لم يعد من سبيل للتردد في تحديد المكان الذي يكشف فيه عن الأثر وأن يعمل الباحث على المحافظة على كل ما يعثر عليه من أشياء في مكان تنقيبه .

ولقد برز في ذلك الوقت اسم « أوغست مارييت » Auguste Mariette الذي لاشك في أنه قد تميز عمن سبقوه من حيث الخبرة والهدف العلمي ولو أنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى من أتى بعده من العلماء . لقد أظهر « مارييت » نشاطاً كبيراً في أعمال الحفر والتنقيب نحواً من ثلاثين عاماً كشف فيها عن السرايوم وكثير من المقابر في سقارة ومعبد الوادي للملك خفرع في الجيزة كما كشف عن معابد اييدوس ومدينة هابو والدير البحري وادفو ودندره كما يرجع إليه الفضل في إنشاء أول متحف للآثار بمصر عام ١٨٥٨ فأبطل بذلك حجة الأوروبيين بالخروج بآثارنا على أساس أننا لا نمتلكها . ولما ريت في قلوبنا

(١) من أهم الكتب التي ظهرت في هذه الفترة والتي كشفت النقاب عن كثير من نواحي الحضارة المصرية وتاريخها هي :

(١) Wilkinson, Sir John Gardner ; "Manners and customs of the ancient Egyptians" London 1837.

(2) Kernick, John ; "Ancient Egypt under the Pharaohs" London 1856.

(3) Uhlemann, Museumian Adolph "Three days in Memphis" Philadelphia 1858.

منزلة فنحن لا ننسى له صنيعة المشهور وذلك أنه عندما عرضت نفائس متحف بولاق في معرض باريس عام ١٨٦٧ وطمعت الملكة « أوجيني » في الحصول عليها عن طريق اسماعيل أحالها إلى « ماريت » قائلاً : إن ثمة من هو أقوى منى في بولاق . ورفض ماريت وأصر على رجوع التحف إلى مصر .

ولكن هذا العالم كان من ناحية أخرى شغوفاً بالبحث عن النفائس قبل كل شيء فكان ينتقب وينقب وقل أن أتم عملاً بدأه ما دام قد استوفى من نفائسه غايته ، كما أنه لم يعن بتسجيل التفاصيل ولم ينشر نتائج كشوفه كاملة بل إن بعضها لم ينشر إطلاقاً ، ولم يقدر في عمله ما سوف تحتاج إليه الأبحاث المستقبلية من معلومات دقيقة عما تم الكشف عنه من آثار . واكتفى بأن أسوق هنا مثلاً واحداً لاكتشف عن ناحية من نواحي الضعف في « ماريت » : أبلغ الأمير

نابليون ابن عم الملك نابليون الثالث الحكومة المصرية برغبته في زيارة مصر ففكرت الحكومة أن تقدم مفاجأة منقطعة النظير لضيفها الكبير واقترح « ماريت » أن يقوم بحفائر واسعة ليكشف عن تحف تليق بمقام الزائر ثم يعيد دفنها ويكشفها مرة ثانية أمام الأمير نابليون ووقع اختياره على جبانة الأسرة السابعة عشر في دراع أبو النجا بالأقصر ونفذ مشروعه الغريب ونقب في كل ركن من أركان هذه الجبانة سعياً وراء التحف دون أن يسجل أو يرسم أو يصف ما يعثر عليه ثم أhal الرمال ثانية على الجزء الذي اعتقد أنه يصلح لتمثيل المسرحية أمام الضيف الكبير — وهنا حدثت المفاجأة واعتذر الأمير عن رحلته إلى مصر ولكن هذا الاعتذار لم يمنع « ماريت » أن يعيد الحفر ويكون مجموعة نفيسة من التحف يقدمها باسم مصر إلى الضيف المعتذر ويسعى في نفس الوقت لدى نابليون ليكون شفيعه عند خديوى مصر للموافقة على إنشاء مصلحة للآثار المصرية وأن يكون هو أول مدير لها ^(١) . حقيقة أن « ماريت » نجح في مسعاه وتمكن من تنفيذ فكرته في إنشاء مصلحة ترعى شئون الآثار وتشرف على أعمال الحفر والصيانة إلا أنه من ناحية أخرى كان من نتائج تصرفه أننا فقدنا كل

(١) Steindorff, G. & Wolf, Walther ; "Die Thebanische Gräberwelt"

(Leipziger Aegyptologische Studien) Heft 4 Seite 31 (Hamburg 1936).

المعلومات التي كان يمكن جمعها عن عصر هذه الأسرة المهمة في التاريخ المصري^(١) وعين « ماسبرو » G. Maspero خلفاً لما ريت مديراً لمصلحة الآثار وكشف عن هرم أوناس وبذلك أضاف اللثام عن « متون الأهرام » التي تعتبر أهم مصدر للباحثين للتعرف على العقائد المصرية ، الدينية منها والجنزية التي كانت سائدة في الدولة القديمة وكان « ماسبرو » عالماً واسع الاطلاع متعمقاً في بحثه لم يترك ناحية من نواحي الحضارة المصرية لم يكتب فيها ومكتبة « الدراسات الأثرية » تزخر بمؤلفاته التي تربو على المائتي والخمسين مؤلف أكثرها لا يزال مستعملاً حتى اليوم من بين المراجع المهمة التي يعتمد عليها رجال الآثار . وكان « ماسبرو » أول من أباح للبعثات الأجنبية حق التنقيب في مصر وتألفت على أثر ذلك في لندن : The Egypt Exploration Fund

وفي القاهرة La mission archæologique française au Caire

وكان أبرز رجال الآثار في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر هو فلندرز بترى الذي كان مما ذكره عن نفسه أنه نشأ أثرياً بالسليقة ومنذ صغره . حينما أتى إلى مصر لم يرتضى طريقة مارييت في الحفر وكان عليه أن يعمل بما هو خير منها وقد فعل - إذ وضع لنفسه أسساً جديدة وهي الحرص البالغ حين الكشف وحين التجميع وتقدير أهمية كبرى لكل شيء يكشف عنه دون تفرقة بين ما هو نفيس براق وبين ما هو عادي . ولقد ترتب على الأخذ بهذا المبدأ أن أصبح لأدوات الحياة اليومية نصيب كبير من الدراسة والتحصيل . وترسم بترى أيضاً في كشوفه احتياجات البحوث والكشوف المستقبلية ونادى بوصف كل شيء يكتشف وأن ينشر بأسرع ما يمكن ولقد ارتأى في هذه المبادئ وحدها وسيلة الأثرى إلى كتابة التاريخ .

(١) لقد اضطر في آخر الأمر العالم الأمريكي « وينك » أن يبحث عن آثار هذه الأسرة التي تفرقت في معظم متاحف العالم (القاهرة ولندن وباريس وبرلين وليدن) ويدرسها وينشرها في مقاله المشهور :

Winlock, H.E. "The tombs of the Kings of the 17th Dyn. at Thebes" (in J.E.A. Vol. 10 P. 217).

وإذا كان الأثرى الألماني Adolf Furtwaengler (١) قد أبرز أهمية الفخار الملون والمزخرف في تأريخ فترات تطور الحضارة المسيانية فيرجع الفضل إلى بترى في إثبات أهمية الفخار الغفل من الزخرفة في التاريخ إذا ما بحث في تفصيل وتدقيق . لقد قدر هذا الأمر أثناء كشوفه في نقراطيس عام ١٨٨٠ (٢) ثم اختمرت لديه الفكرة وعمل على تحقيقها أثناء تنقيبه في تل الحيسى بفلسطين عام ١٨٩٠ (٣) حيث عثر على تل يرتفع إلى ما يقرب من ٢٠ متراً ويتكون من طبقات عدة لكل طبقة منها ما يميزها من أنواع الفخار ، ثم بعد ذلك عثر في نقاده وبلاص عام ١٨٩٤ - ٩٥ وفي « هو » عام ١٨٩٨ - ٩٩ (٤) على آثار مختلفة كل الاختلاف عما تعود الباحثون من قبل ، فلم يكن بينها أثر مكتوب بل هي قطع صامته . لا تعبر لكاشفها عن عصرها ، ردها أولاً إلى جنس أجنبي نزل مصر في أواخر الدولة القديمة ثم ما لبث أن تبين أنها آثار ترجع إلى ما قبل عصر الكتابة وذلك بعد أن قارنها بما نتجت عنه أبحاث de Morgan (٥) في ذلك الحين ، فعمل بترى على أن ينطقها بترتيبها وتبويبها واستعان في ذلك بتفاصيل المادة واللون والصناعة وكانت الاختلافات الدقيقة في ذلك كله هي وسيلته إلى ابتداء نظرية التأريخ المتتابع الذي يمثل حضارة مصر وتطورها في عصور فجر التاريخ (٦) - وليس من شك في أن بترى استعان بالفخار بل اعتمد على أنواعه الغفل منها والملون كل الاعتماد في وضع نظريته المذكورة على أنه لم يتخذ تطور أشكال الفخار كوسيلة لتأريخ

(1) Furtwaengler und Loeschcke ; "Mykenische Vasen" 1886.

(2) Petrie, Sir William Flinders and Gardner, E.A. ; "Naukratis" part 1-2 London 1886-88.

(3) Cf. Albright, W.F. : "The Archaeology of Palestine" (Pelican) 1951. Page 29.

(4) Petrie, Flinders : "Diospolis Parva" "The cemeteries of Abadiyeh and Hu 1898-99". London 1901.

(5) Morgan, Jacques Jean Marie de ; "Recherches sur les origines de l'Egypte" Paris 1896.

(6) Petrie, Flinders ; "Methods and Aims in Archaeology " London 1904.

حضارات فجر التاريخ في مصر فحسب وإنما خرج به إلى عقد التواريخ المقارنة بين الحضارة المصرية وغيرها من حضارات الأمم المتأخرة .

ومن أهم الكشوف التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر كانت تلك المجموعة الكبيرة من أوراق البردي التي عُثِرَ عليها بترى في اللاهون (١) وتتكون من برديات طبية بعضها يبحث في أمراض النساء وأخرى تبحث في الطب البيطري « علاج أسنان وعيون الكلاب والعجول » (٢) ثم وجد بينها أيضاً رسائل أدبية وتعليمية وبقايا بردية رياضية ونشيد باسم سنوسرت الأول .

وفي هذه الفترة أيضاً عُثِرَ « كويل » على مقبرة تقع أسفل أحد المخازن الخلفية الملحقة بمعبد الرامسيوم بطيبة ووجد فيها صندوقاً خشبياً مليء إلى حوالى ثلثه ببرديات مختلفة تمزق أغلبها ولكن أمكن التعرف منها على :

١ - البردية الجغرافية المعروفة باسم Ramesseum Onomasticon (٣)

٢ - طقوس حفل تنويع سنوسرت الأول (٤) .

٣ - أجزاء من قصتي سنوهى والفلاح الفصيح (٥) .

٤ - رسائل من سمنه وغيرها من الحصون الجنوبية لها قيمتها في التعرف على شئون الإدارة في الجنوب .

ونحن لا ننسى أيضاً ما ترتب على كشف أرشيف تل العمارنة الذي حوى رسائل على جانب كبير من الأهمية التاريخية إذ أنها تكشف القناع عما كان يجري في الشرق القديم من تنازع قوى بين مصر وبلاد الحيثيين . ولقد عُثِرَ على هذه

(1) Petrie, Flinders ; "Illahun, Kahun and Gurob" 1889-90.

(2) Griffith, "Hieratic papyri from Kahun" 1898.

(3) Gardiner, Alan H. "Ancient Egyptian Onomastica" 2 vol. Oxford 1947.

(4) Sethe, Kurt ; "Dramatische Texte zu Altaegyptischen Mysterienspielen" Leipzig 1928.

(5) A :— Gardiner, Alan Handerson ; "Die Erzählung von Sinuhe und die Hirtengeschichte" Leipzig 1909.

B :— Vogelsang, Friedrich ; "Kommentar zu den Klagen des Bauern" Leipzig 1913.

الرسائل عام ١٨٩٠ في أطلال مدينة تل العمارنة ويبلغ عددها ما يقرب من ٣٠٠ رسالة وكتبت بالخط الاسفينى على لوحات من الطمي المجفف وتمثل لنا الخطابات الرسمية المتبادلة بين ملك مصر وملوك بابل ونيوى وميتانى وقبرص وكذلك أمراء الولايات المصرية في سوريا وفلسطين وللأسف أهمل أمر هذه اللوحات في البداية نظراً للشكوك التى أحاطت بقيمتها ثم عرفت بعد ذلك قيمتها العلمية وقام بنشرها العالم الألمانى « كندوسون » (١) في مستهل القرن العشرين .

ونذكر أيضاً ذلك الكشف الكبير الذى حدث في أواخر القرن التاسع عشر وتمخض عن العثور على أعداد ضخمة من الموميات الملكية التى حرص أحد فراعنة الأسرة العشرين على إيداعها مخبأ أميناً بمنطقة الدير البحرى (٢) فكان في الكشف عنها مادة لا تقدر لأبحاث علماء الآثار من ناحية وعلماء الطب والتشريح من ناحية أخرى (٣) .

ومنذ أول القرن العشرين زادت الأبحاث العلمية والكشوف الهامة في مصر ولعل من أهم الأحداث التى وقعت في مستهل هذا الاجتماع العلمى الذى عقد في فندق مينا هاوس في نوفمبر عام ١٩٠٢ وحضره ماسيرو ورايزنر وبورخاردت وسكابارالى وقسموا جبانة الجيزة إلى مناطق مختلفة خصصت كل منطقة لأعمال الحفر العلمى لإحدى البعثات العلمية الآتية :-

1. The Hearst Egyptian Expedition of the University of California.
2. The Sieglin Expedition of the University of Leipzig.
3. The Expedition of the Turin Museum.

ومنذ عام ١٩٠٧ تولت الكشف في تل العمارنة البعثة الألمانية للدراسات الشرقية Die deutsche Orient Gesellschaft وانتهت أعمالها هناك بقيام الحرب العالمية الأولى وأعقبتها بعثة Egypt Exploration Society

(1) Knudtzon, J.A. ; "Die El-Amarna-Tafeln". Leipzig 1915.

(2) Maspero, G. ; "Rapport sur la trouvaille de Dier-el-Bahari" (Institut Egyptien. Bulletin, Le Caire 1883).

(3) Smith, Elliot and Dawson, Warren ; "Egyptian Mummies" London 1924.

وفي نهاية الربع الأول من القرن العشرين كشف مغول الحفار عن مقبرتين كان لهما أكبر الأثر في زيادة ما نعرفه عن حضارة عصرين من أهم عصور التاريخ المصرى : الأولى هى مقبرة « حوتب - حر - اس » أم الملك خوفو وعر عليها رايزنر في الجبانة الشرقية الواقعة إلى الشرق من الهرم الأكبر (١) والثانية هى مقبرة الملك « توت عنخ أمون » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر (٢) ومن تولوا أمر مصر في أعقاب حركة التوحيد التي قام بها أخناتون .

ويمتاز القرن العشرون في مصر بالدراسات الشاملة التي هدفت إلى التعرف على حضارات عصور فجر التاريخ ومدى ما وصل إليه المصرى من تقدم في مدينته في تلك العصور التي سبقت مينا بآلاف السنين خاصة ولأن كتب التاريخ التي نشرت في أوائل القرن العشرين لم تذكر عن عصور فجر التاريخ في مصر إلا القليل من المعلومات التي قامت على أبحاث كل من « دى مورجان » و « فلندرز بترى » .

حفز « يونكر » (٣) في غرب الدلتا في منطقة مرمدة بنى سلامة وعر على حضارة ردها إلى العصر الحجري الحديث ثم قامت « كيتون تمسون » و « جاردنر » خلال السنوات ١٩٢٤ - ١٩٢٨ بأبحاث في منطقة الفيوم (٤) انتهت بتقسيم حضارتها إلى فترتين : فيوم ١ ، وفيوم ب - ردت الأولى إلى حوالي ٥٠٠٠ ق . م والثانية إلى ٤٥٠٠ ق . م . وقامت حفائر المعادى بإشراف مصطفى عامر ومنجيين (٥) وأرخت في أول الأمر بالعصر الحجري الحديث

(1) Reisner, G. and Smith, W. S. ; "A History of the Giza Necropolis" Vo. II. The tomb of Hetep-Heres. (Harward Univ. Press 1955).

(2) Carter, Howard ; "The Tomb of Tut-Ankh-Amen".

(3) Junker, H. ; "Vorberichte uber die Grabung auf der Neolithischen Siedlung von Merimde — Benisalama" in Anzeigen der Wiener Akademi der Wissenchaften (Hist. Klasse) 1929-34.

(4) Caton Thompson and Gardner ; "The Desert Fayum" 2 vol. London 1934.

(5) Menghin, O. and Amer, M. ; "The excavations of the Egyptian University in the neolithic site at Maadi" Cairo 1936.

ثم ردت بعد ذلك إلى أواسط عصر ما قبل الأسرات أى تكون معاصرة لحضارتى
جرزة والسمانية . وقام العلامة « بوفيه - لابيير »^(١) بأبحاثه فى منطقة العباسية
وبدراساته على الطران الذى عثر عليه فى منطقة العمرى كما حفر « دى بونو »^(٢)
فى منطقة حلوان .

أما فى مصر العليا فقد قامت المدرسة الانجليزية للآثار فى مصر ،
بكشوفها فى البدارى . وفيما حوّلها بين ١٩٢٢ - ١٩٢٥ فاكشف « برنتون »
جبانات البدارى وعملت « كيتون تمبسون » فيما بين قاو والبدارى وصدرت
نتائج بحثهما فى مؤلف واحد^(٣) اعتبرت فيه حضارة البدارى سلفاً لحضارات
ما قبل الأسرات فى مصر العليا .

ثم واصل « برنتون » كشوفه فى مصر الوسطى وعثر فى دير تاسا قرب
نزلة المستجدة^(٤) على قرية وجبانه ردهما إلى حضارة تسبق عصر حضارة
البدارى وقام « فينيارد » فى نجع حمادى بحفائر بالقرب من قرية « السبيل »^(٥)
وأثبت أن حضارتها « السبيلية » ترجع إلى العصر الحجري الحديث .

وعلى أساس ما كشف فى الوجهين من حضارات فجر التاريخ اتجه البحث
إلى تقصى نشأة هذه الحضارات وقامت نظريات متعددة عن أصولها . وكان
يترى قد قسم حضارات فجر التاريخ (أو حضارات نقاده) فى الصعيد ومصر
الوسطى إلى ثلاث مراحل^(٦) .

(1) Bovier Lapierre ; "L'Egypte Préhistorique" (dans Précis de l'histoire d'Egypte).

(2) Debono ; "Heluan" (Chronique d'Egypte No. 41. Bruxelles 1946).

(3) Brunton and Caton Thompson ; "The Badarian Civilisation and Predynastic remains near Badari". London 1928.

(4) Brunton ; "Mostagedda and the Tasian Culture" London 1937.

(5) Vignard, M.E. ; "Une nouvelle Industrie Lithique, le Sebilien" Bull. de L'Institut Franc. D'Arch. Orientale Vo. XXII 1923 (P. 1-76).

(6) Petrie, Flinders ; "Prehistoric Egypt" London 1920.

١ - « العمرة » وتشغل ما بين ٣٠ و ٣٨ من توقيته المتتابع وتمثل بداية عصور فجر التاريخ المبكرة بالنسبة إلى عصر ما قبل الأسرات .

٢ - « جرزه » وتشغل ما بين ٣٩ و ٦٣ من توقيته المتتابع وتمثل أواسط هذه العصور .

٣ - « سمانية » وتشغل ما بين ٦٤ و ٧٨ من توقيته المتتابع وتمثل أواخر هذه العصور ثم أدت كشوف حضارات البدارى وتاسا إلى شغل ما قبل المرحلة ٣٠ من توقيت بترى المتتابع فأصبح لعصر فجر التاريخ المصرى عقد متصل يبدأ من تاسا وينتهى إلى عصر الأسرات وتشغله فيما بين ذلك حضارات البدارى والعمرة وجرزة وسمانية .

ولقد جرت محاولات لادماج حضارات فجر التاريخ فى الوجه البحرى فى هذا العقد لخصها « تشايلد » (١) وسليمان حزين (٢) وباومجيرتل (٣) وهذه المحاولات يأخذ بها البعض وينفيها البعض الآخر .

وهكذا قامت البعثات المختلفة بكشوفها المتتالية فى المناطق التى عاش فيها المصرى الأول وكثرت التفسيرات وتعددت النظريات الخاصة بالتأريخ الخاص بتتابع حضارات هذا العصر وأصبحنا الآن على استطاعة من أن ندرس فتراته ونحدث طويلا على مدى تطور حضارات المصرى الأول منذ أن ظهر فى أرض مصر حتى استطاع أن يبدأ عصره التاريخى حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م وهو العصر الذى نعتمد لتأريخه على وثائق وأسانيد مكتوبة .

٣ - الكشف الأثرية فى العراق :

هذا ما كان من أمر الكشف الأثرية فى مصر ومدى ما أثرت به على إعادة كتابة التاريخ المصرى الذى كان علماء القرن التاسع عشر يبدؤونه بالأسرة

(١) Childe, G. ; "New Light on the most Ancient East" 1935.

(٢) Huzein, Soliman ; "The Place of Egypt in Prehistory" (Mem. présenté à l'Institut d'Egypte, T. 43). 1941.

(٣) Baumgartel, E.T. ; "The Cultures of Prehistoric Egypt" 1947.

الرابعة بينما نستطيع الآن أن نسرد تاريخنا منذ أن سكن المصري الأول وادي النيل حتى يومنا هذا . وهذه السلسلة الطويلة من الأحداث التاريخية والتطورات المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية لا تكاد تنقطع بين أيدينا إلا مرات لا يتعدى عددها أصابع اليد الواحدة .

وهذه المراحل التي ذكرناها عن تاريخ الكشف الأثرية في مصر تكاد تتشابه مع المراحل التي مرت بها الكشف الأثرية في بقية مناطق الشرق الأدنى والأوسط .

لقد كان فيما أنت به قصص التوراة عن بلاد ما بين النهرين وفلسطين وعن مجدهما القديم ما أثار تطلع الباحثين والمغامرين معاً . وبدأ اهتمام الأوروبيين بآثار بلاد ما بين النهرين ومحاولة قراءة الكتابة الاسفندية (المسامرية) بأنواعها المختلفة مجهودات فردية .

ولعل أول محاولة لوصف الآثار القائمة فوق سطح الأرض هي تلك التي قام بها الفنصل البريطاني « ريتش » في رحلاته المتعددة التي طاف إبانها مناطق العراق القديم فيما بين ١٨٢٦ و ١٨٢٠ ونشر نتائجها في أكثر من كتاب (١) ظهر بعضها بعد وفاته .

أما محاولة قراءة الكتابة الاسفندية فقد بدأت قبل ذلك وهي ترجع إلى عام ١٧٦٥ حين قام العالم الهولندي Karsten Niebuhr بزيارة أطلال مدينة « برزوبوليس » ونسخ بعضاً من النصوص القديمة ثم تبعه الأب Abbé de Beauchamp عام ١٧٨٠ فوصف بعضاً من اللوحات الطمسية المنقوشة بالخط الاسفندي والتي تملأها يشاء أشلاء إقامته في بغداد ثم نجد العالم الألماني Grôtefend نجح في قراءة أسماء ثلاثة من الملوك التي وردت في النصوص

-
- (١) Rich. Claudius James, (appointed as British Resident in Baghdad in 1808).
A. "Memoirs on the Ruins of Babylon" London 1815.
B. "Second Memoirs on Babylon" London 1818.
C. "Narrative of a Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh, with journal of a Voyage down the Tigris to Baghdad, and an account of a Visit to Shiraz and Persepolis" London 1836.

التي كان « نيبور » قد نشرها ولم يلبث أن تمكن من الوصول إلى قراءة ما يقرب من ثلث النصوص السالفة الذكر وتقدم عام ١٨٠٢ ببحث مستفيض عن قراءاته هذه إلى الأكاديمي الألمانية بمجوتنجن التي رفضت قبوله ونشره وظل هذا البحث في طي النسيان حتى نشر عام ١٨٩٣ لقيمته التاريخية فحسب (١).

وإذا كان « جروتفند » قد فشل في نشر نتائج قراءاته فنجد أن عالماً آخر يبدأ محاولات أخرى في عام ١٨١٠ وهو « سير هنري رولنسن » فيقوم بنقل نصوص « باهستان » التي نرجعها إلى عصر داريوس (٥١٦ ق . م) وهي نصوص نقشت على واجهة جبل عال على ارتفاع ما يقرب من ١٥٠ متراً . واعتمد « رولنسن » في عمله المصنئ هذا على صبي كردى كان عليه أن يبق طوال يومه معلقاً بين السماء والأرض يعتمد بأصابع قدميه على شق بالجبل ويشد خصره بجبل يتأرجح به ليأخذ من « رولنسن » تارة أوراقاً بيضاء لطبع عليها النقوش بطريقة الضغط ثم لا يلبث أن يعطيه إياها ليأخذ غيرها .

وتميز « رولنسن » بمعرفته لعدد من اللغات الشرقية يسرت له النجاح في قراءة الفقرتين الأولى والثانية من نصوص باهستان التي كتبت باللغة الفارسية القديمة وبالحظ الاسفني ونشر نتائج بحثه في عام ١٨٣٧ (٢) ثم نشر ترجمة كاملة للنص مع بعض الملاحظات القيمة عن قواعد اللغة عام ١٨٤٦ (٣) .

واستمر « رولنسن » في أبحاثه من نصر إلى نصر حتى عام ١٨٥٧ حين أرسل إلى المتحف البريطاني ترجمة نص ورد على حجر اسطوانى الشكل من عصر الملك تيجلات - بلاتسزر الأول وهنا أراد رجال المتحف أن يتعرفوا على مدى صحة هذه الترجمة فأرسلوا بالنص إلى أكثر من عالم عرفوا بدراساتهم لهذه اللغة على أن يرسل كل منهم بترجمته إلى الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية

(1) Parrot, André ; "Archéologie Mésopotamienne : Les Etapes" Paris 1946.

(2) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "Inscription at Behistun" Journal of the Royal Asiatic Society 1837 and 1839.

(3) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "The Persian Cuneiform Inscription at Behistun" London 1846 (2 vols.).

واجتمعت لجنة مكونة من العلماء « ويلكنسون » و « جاردنر » و « ملان » وغيرهم وقارنوا التراجم المختلفة وقد بلغت في تشابهها حداً جعلهم يجهرّون بأن جهود علماء اللغة قد نجحت تماماً في قراءة الخط الاسفيني .

وفي الوقت الذي كانت مصر قد تخلصت من أدعياء البحث الأثرى أو ناهي القبور في منتصف القرن التاسع عشر نجد أن هذه المرحلة قد بدأت في بلاد العراق على يد نفر من المغامرين .

وكان أشهر هؤلاء هو « بوتا » (١) الذي يعتبر أول من قام بأعمال الحفر والتنقيب في بلاد العراق . عينته فرنسا قنصلاً لها في الموصل ويغلب على الظن أن تعيينه قد تأتى كنتيجة للاهتمام البالغ الذي تفشى بين العلماء الفرنسيين المستشرقين بآثار بلاد العراق وهو ذلك الاهتمام الذي نما بعد أن نشر « جيمس ريتش » كتابيه السالتي الذكر عن آثار بلاد ما بين النهرين .

بدأ « بوتا » حفائره في مدينة نينوى (٢) عام ١٨٤٢ وتكون هذه المدينة من عدة تلال أثرية أهمها تل « قيونجيك » وتل « النبي يونس » واتجه في أول الأمر إلى التل الثاني إلا أنه اضطر أن يتحول إلى تل « قيونجيك » نظراً لأن « تل النبي يونس » كان يقوم على قمته مسجد إسلامي . ويبدو أن نتائج حفائره لم ترضه فهو كان يبحث عن التحف والنقائس ولم يلبث أن سمع بأخبار العثور على بعض التماثيل في « خورساباد » إلى الشمال من « نينوى » فاستهواه هذه الأخبار وسارع إلى « خورساباد » عام ١٨٤٣ حيث عثر على بقايا قصر آشوري وأعلن على الملأ أنه وفق إلى أطلال مدينة نينوى القديمة (٣) . ولقد كان لهذا الكشف دوى عظيم في فرنسا واضطرت الحكومة الفرنسية تحت ضغط

(١) Paul-Emile Botta.

(٢) كانت بلاد آشور تحوى ثلاث مدن كبرى شهت في التاريخ وهى : آشور ونمرود ونينوى . تقع الأولى على بعد ٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب من الموصل والثانية على بعد ٣٥ كيلومتراً إلى الجنوب الشرق منها بينما نينوى تقع على شاطئ نهر الدجلة قبالة مدينة الموصل .

(٣) ولم تكن « خورساباد » في حقيقة الأمر إلا مدينة « دور شاروكين » القديمة مركز الملك « سارجون الثاني » أحد ملوك آشور المهمين الذي عاش فيما بين عام ٧٢١ و ٧٠٥ ق . م . وكان قصره هو ذلك المبنى الذى عثر عليه بوتا .

المستشرقين الفرنسيين أن ترصد مبلغاً من المال للصرف على نشاط « بوتا » في العراق وصدر عام ١٨٤٩ كتاب ضخيم من خمسة مجلدات (١) وصف في الجزء الأول منه القصر المكتشف في « خورساباد » وسجل في الأجزاء الأربعة الأخرى رسوماً لمنطقة الحفر ولأجزاء المبنى من رسم الفنان Flandin الذي كان قد استدعاه لتسجيل الأثر ورسم أجزائه .

وفي نفس هذا الوقت كان « ليارد » (٢) مبعوث المتحف البريطاني يحفر في نمرود ووفق فيما بين ١٨٤٥ إلى ١٨٤٧ إلى الكشف عن قصور ملكية ثلاث : الأول للملك « آشور - ناصر - بعل » (٨٨٣ إلى ٨٥٩ ق . م) والثاني « لأشور أخى الدين » (٦٨٠ - ٦٦٩ ق . م) والثالث « لشلانصر الثالث » (٨٥٨ - ٨٢٤) ولقد نشرت نتائج حفائره في كتابين (٣) مقتنعاً أن نمرود هذه هي مدينة نينوى بالذات .

على أن التقدم السريع الذى أصابه العلماء في حل رموز الكتابة الاسفينية في ذلك الحين جعل « ليارد » يدرك أن « نمرود » ليست « نينوى » ولا نلبث أن نراه يحفر في عام ١٨٤٩ في منطقة نينوى نفسها أى في تلى « النبي يونس » و « قيونجيك » وكان أهم كشوفه هو العثور عام ١٨٥١ على قصر « سنحريب » ومكتبته العامرة بآلاف اللوحات المكتوبة وقد عثر عليهما في تل « قيونجيك » . وكان من نتائج تنقيبات كل من « بوتا » و « ليارد » أن تدفقت التحف الأثرية في المتحف البريطاني واللوفر وترتب على عرض النفائس التى أرسلها « ليارد » إلى المتحف البريطانى وذيوخ مؤلفاته عنها أن منحه جامعة اكسفورد الدكتوراه وهو في سن الحادية والثلاثين . ولكن هذا اللقب العلمى لم يخلع عليه صفة الباحث الأثرى . ويتضح أمر هذا التناقض إذا عرفنا الطريقة التى اتبعها في عمله . لقد كتب بصف أعماله في « نمرود » قائلا : إن هدفي هو استخراج أكبر عدد ممكن من القطع الفنية السليمة في أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة .

(1) Botta et Flandin ; "Monuments du Ninève" Paris 1849-50)

(2) Sir Austen Henry Layard.

(3) A.—Layard, A.H. "The Monuments of Nineveh" London 1849.

B.—Layard, A.H. "Nineveh and its Remains" London 1849.

والواقع أن أحداً من أثري القرن التاسع عشر لم يسلم من نقد أخلافه .
فبرستد (Breasted) انتقد الطريقة التي اتبعها « لايارد » في تنقيبه
في تل « قيونجيك » وقال عنها أنها تفتقر إلى الخبرة العلمية كما هاجم العالم
الأمريكي « هيلبرشت » (Hilprecht) الطريقة التي تمت بها الكشف
في بلاد ما بين النهرين قبل أن يشترك هو في الحفائر التي قامت في « نيبور » -
في حين هاجم « بدج » (Budge) « هيلبرشت » نفسه فيما قام به من
نشاط في حفائر « نيبور » بالذات وقال أنها تفتقر إلى كل مظهر للحفر العلمي .

وعلى كل حال يمكن أن نفسر هذا النقد المستمر لكل من اشتغل بالآثار
ضد من سبقوه من العلماء بأنه دليل حيوية وأنه كان باستمرار الدافع القوي الذي
خطا بالعلم وبهذه الدراسات بعينها نحو الأمام . ويجب علينا في نفس الوقت
أن نعترف بأن أثري القرن التاسع عشر كانوا يعملون في أرض شبه بكر وبوسائل
محدودة كما أنهم كانوا مضطرين أن ينتهجوا نهج « لايارد » باستخراج أكبر عدد
ممكن من القطع الفنية السليمة في أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة حتى يشبعوا منهم
المتاحف الأوروبية من ناحية وليرضوا الأثرياء الذين حرصوا على تكوين
مجموعات أثرية خاصة . على أنه من المعروف أن أثري بلاد العراق بالذات
كانوا أكثر جناية على آثارها من أضرابهم الذين عملوا في مصر . إذ حافظت
رمال الصحراء المصرية وجفاف مناخها على آثار المصريين القدماء المطمورة
فيها كما كفل البناء بالحجر الصلد مقابر مبانيهم بينما كان الأمر على عكس ذلك
في بلاد العراق مما كان يستلزم من أثريها علماً كافياً بطرق وقاية الآثار والحفاظة
عليها في حين افتقر الرعيل الأول منهم إلى هذا العلم تماماً بحيث كثيراً ما كانت
الآثار القيمة تتفتت وتتلاشى بمجرد تعرضها للهواء وأشعة الشمس تساوت
في ذلك الحوذاث والأواني النحاسية والأسلحة والمناظر الملونة على الجص فضلاً
عن المباني المشيدة من اللبن والطوب المحروق .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحولت الكشف الأثرية في
بلاد العراق إلى الجزء الجنوبي منها وكان في ذلك خطوة مؤذنة بكشف حضارة
السوميريين ولعل سبب هذا الاهتمام يرجع إلى أن الدراسات اللغوية التي قام بها

« رولنسن » وبعض من زملائه انتهت إلى إثبات صلات واضحة بين اللغات الثلاث التي كتب بها « داريوس » حولياته وانتصاراته في « بيهستون » وهي اللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة الأكديّة . وأن الأخيرة هي أقدم اللغات الثلاث وأكثرها تعقيداً ومنها اشتقت العيلامية والفارسية وأن النقوش الآشورية التي أظهرتها كشوف « لا يارد » الإنجليزي و « بوتنا » الفرنسي قريبة هي الأخرى من اللغة « الأكديّة » التي ثبت أنها أيضاً ذات أصل سامي قريب من اللغة العبرية والعربية . غير أن اللغوي « هينكس » (Hinks) أكد أن البابليين أصحاب اللغة السامية لا يمكن أن يكونوا هم مبتدعي الكتابة الآسفينيّة ، ولا بد أن تكون هذه الكتابة من نتاج شعب أقدم – فكان على الأثرين منذ ذلك الوقت أن يتعرفوا على هذا الشعب الأقدم .

في عام ١٨٧٠ صرح عالم الآثار « أوبرت » (Oppert) بعد أن كشف النقاب عن بعض معالم مدينتي كيش وبابل أن هذا الشعب هو شعب « سومر » . ثم استمرت الأعمال تجري للكشف عن المناطق الجنوبية ووفق « تيلور » (Taylor) القنصل الإنجليزي في البصرة إلى الكشف عن « أور » وكشف « لوفتوس » (Loftus) عن الوراقاء موطن جلجمش السوميري ، على أن الفصل في قضية الحضارة السابقة للبابلية يرجع إلى كشافين مهمين : أولهما ذلك النص الذي عثر عليه « رسام » (١) في منطقة « أبي حبا » والذي يقص كيف أن الملك « نابونيد » (٢) – وهو آخر ملوك بابل (من ٥٥٥ إلى ٥٣٨ ق . م) الذي هزمه كيروس الفارسي واستولى على بلاده – أراد أن يتحرق منشئ معبد شمش فحفر فيه إلى عمق ستة أمتار حتى وصل إلى حجر الأساس وتبين منه أن منشئه هو « نارامسين بن سارجون الأكدي » (٣) .

(١) كان « رسام » عراقي من الموصل عمل فترة طويلة مع « لا يارد » في مناطق الحفر ثم مال إلى رسام بعد أن تجنس بالجنسية الإنجليزية أن عمل بمفرده لحساب المتحف البريطاني – ولقد هذا حلو أستاذه في طرق الحفر الذي لا يستهدف غير استخراج النفائس في أقصر وقت وبأقل التكاليف .

(2) Scharff, A und Moortgat, A. ; "Aegypten und Vorderasien im Altertum"

P. 453-55 (München 1950).

(٣) ولا بد لنا أن نسجل هنا أن هذه كانت أول محاولة في التاريخ لكشف أثرى .

أما الكشف الثاني المهم فقد كان ما عثر عليه « أرنست دى سارسيك »
« Ernest de Sarzec » فى « تلو » من آثار فى حفائره التى قام بها فيما
بين عام ١٨٧٧ و ١٩٠٠ إذ اتضح أنها « بلخس » السوميرية وقد أخرج منها
كنوزاً من تحف رائعة للفن السوميرى من بينها تلك التماثيل التى تمثل « جوديا »
الحاكم السابع للبلخس . وفى آخر الأمر عثرت البعثة الأمريكية فى حفائرها منذ
١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ فى « نيدور » على معبد الإله « انليل » أكبر مراكز الحج
السوميرية كما عثرت هذه البعثة على ما يقرب من الخمسين ألف لوحة كتب
أغلبها باللغة السوميرية وتضمنت من الأدب السوميرى ومن الحقائق التاريخية
ما هو نتاج أكثر من عشرة قرون .

وكان القرن العشرون بالنسبة إلى الكشف الأثرية فى بلاد العراق مثله
فى ذلك مثل ما كان بالنسبة إلى مصر هو قرن الدراسات الخاصة بعصور فجر
التاريخ . بدأت بعثة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية Die Deutsche
Orient Gesellschaft بداية مجيدة . وكان هدف رجال هذه الجمعية
ينحصر فى العمل على إتمام كشف كامل لأطلال مدينة قديمة ، مع بحث قطاع
من تل أثرى وذلك للتعرف على تتابع طبقاته ودراسة ما تحويه كل طبقة من
المخلفات البشرية وأدوات حضارة إنسانها على حدة دراسة كاملة . لقد نفذ هذه
الطريقة « والتر أندريه » « Walter Andrae » فى حفائره (١)
التي قام بها للكشف عن مدينة « أشور » أول عاصمة للوطن الآشورى وبقي
ينقب هناك من ١٩٠٣ إلى ١٩١٤ ، وبعد أن كشف عن معبد « عشتارته »
نفذ إلى أساساته وبحث ما احتضنته الأرض من أسفله فعثر على أبنية أخرى
انتهت فى آخر الأمر بمعبدين عتيق يرجع إلى العصور الأولى من الحضارة
السوميرية . فكان لهذا العمل أهميته الكبرى بالنسبة إلى تتبع فترات ظهور
حضارة بلاد العراق القديم منذ أول عصورها ، كما أنه وضع الأسس الأولى

(١) Andrae, Walter ; "Das wiedererstandene Assur" (9. Sendschrift der
Deutschen Orient Gesellschaft 1936).

التي قامت عليها الدراسات المقارنة للطبقات المتتابعة والتي تحوى آثاراً ترجع إلى عصور مختلفة .

وقامت في نفس الوقت بعض البعثات الأخرى بكشوف في مناطق مختلفة اتبع أصحابها طريقة الألمان العلمية في البحث والتنقيب فكشف « بانكس » القنصل الأمريكي عن مدينة « اداب » القديمة ^(١)، كما نقب « كنج » باسم المتحف البريطاني في « قيونجيك » وحفر « دى جنيواك » (de Genouillac) في « كش » .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى توافدت البعثات على بلاد العراق وزاد النشاط العلمي وكشف معول الحفار عن مناطق مختلفة من مراكز الحضارة السوميرية القديمة فعثر « هول » (Hall) على مدينة « العبيد » غربي « اور » ووفق إلى معبد صغير يعتبر بمثابة الأصل العتيق للأسلوب المعماري الذي تطور إلى أن وصل إلى الأسلوب المتأخر للمعبد السوميري المعروف باسم « زيجورات » ^(٢) كما أسهم « وولي » بنصيب وافر في الكشف عن « اور » ^(٣) حيث عثر عام ١٩٢٦ على مقابر ملكية فاقت محتوياتها كل ما انتظره العلماء لدقها وتقدم فيها وكان للكشف عن كنوزها من الواقع ما كان لاكتشاف كنوز « توت عنخ آمون » . وفي « العبيد » كشف « وولي » عن مبنى سجل على حجر الأساس فيه : أن الملك « أ - أنى - بدا » بن « مس - أنى - بدا » ملك « أور » هو الذي شيد معبد « نين - خورساج » . ونظراً لأن هذين الاسمين كان العلماء قد عرفوهما من قوائم الملوك . لذلك اعتبر هذا المعبد بمثابة أول مبنى عثر عليه الأثريون متصلاً اتصالاً وثيقاً بشخصيتين تاريخيتين ^(٤) .

(١) Banks, E.J. ; "Bismaya, or the Lost City of Adab" 1912.

(٢) Hall, H.R. and Woolley, L. ; "Al-Ubaid" 1937.

(٣) Woolley, L. "Ur of the Chaldeans" 1929.

(٤) قام « هول » و « وولي » بنشر نتائج كشوفهما في كل من « العبيد وأور » في كتاب كبير من ستة أجزاء اشترك فيها أكثر من عالم وهذه الأجزاء هي :

Vol. I Hall and Woolley "Al-Ubaid" 1937.

Vol. II Woolley "The Royal Cemetery" 1934, 2 volumes.

Vol. III Legrain "Archaic Seal Impressions" 1936.

Vol. IV. Gadd and Legrain "Royal Inscriptions" 1935 2 volumes.

Vol. V Borrows "Archaic Texts" 1935.

Vol. VI Woolley "The Ziggurat and its Surroundings" 1938.

وعلى نحو ما لعبت أنواع الفخار المصرى دورها فى توقيت فترات فجر التاريخ فى مصر ، كذلك لعبت أنواع الفخار فى بلاد العراق والطبقات التى وجدت فيها دوراً كبيراً فى توقيت عصور فجر التاريخ وتتابعها هناك .

ولقد أعلن فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى « ليدن » عام ١٩٣١ أن بلاد العراق القديم مرت فى ثلاث فترات إبان عصر فجر التاريخ وهى :

(أ) « العبيد » وتؤرخ من ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق . م .

(ب) « أوروك » وتؤرخ من ٣٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م .

(ج) « جمدة نصر » وتؤرخ من ٣٢٠٠ إلى ٢٨٠٠ ق . م .

غير أن توالى الكشف فى البلاد أدى إلى إضافة فترتين سابقتين : الأولى تعارف العلماء على تسميتها فترة « تل حلف » ، والثانية وهى ما سماها مكتشفها « كامبل تومبسون » باسم « ما قبل الخلافة » - إلا أنه قد ظهر من كشف السيد « فؤاد صفر » فى « تل حسونه » عام ١٩٣٤ (جنوبى نينوى) أن حضارتها مطابقة لما سمي بما قبل « تل الخلافة » - وبهذا أصبح من الميسور الآن تقسيم فترات فجر التاريخ فى بلاد العراق القديم إلى الحضارات الآتية :-

١ - حسونة ٢ - تل حلف ٣ - العبيد

٤ - أوروك ٥ - جمدة نصر .

٤ - « شليمان » والبحث عن « طروادة » :

لم تكن أصداء الكشف فى مصر والعراق هى كل ما دوى فى القرن التاسع عشر ، وإنما كان لكشف طروادة وجزر الأرخييل دوى عظيم كذلك . ولقد شهدت هذه المنطقة منذ الربع الأول للقرن أبحاثاً مختلفة لفريق من الجيولوجيين والأثرين لها أهميتها ، غير أن الأثر الأكبر كان بلاشك للكشف الهامة التى قام بها « هينرش شليمان » الذى يعتبره الكثيرون بمثابة المكتشف الأول لآثار عصر ما قبل تاريخ الإغريق .

وفى الواقع يعتبر « شليمان » أثرياً بالسليقة ، لم يذهب إلى الأناضول لكى يكتشف آثاراً يزود بها متحفاً من المتاحف أو ليزيد من ثروته أو لأنه

كان هاوياً يحب جمع الآثار ليزين بها قصره — لقد كان « شليمان » يبحث وراء هدف معين بالذات ألا وهو الكشف عن « طرواده » والعثور على بقاياها مهما كلفه ذلك من مشقة أو مال .

يصف شليمان في مقدمة كتابه « دراسات أثرية » (١) الفترة الأولى من بحثه عن « طرواده » فيقول انه اتجه عام ١٨٦٨ إلى الشرق لبحث عن حلمه الذي عاش معه منذ الطفولة أى عن « طرواده » فنزل في قرية صغيرة اسمها « يونارباشى » (٢) اعتقد معظم العلماء في ذلك الوقت أنها تقوم على أطلال المدينة القديمة وبنا هؤلاء نظريتهم هذه على أساس أن سطوح منازلها تعج بأعشاش الطائر « اللقلق » (أى الوز العراقى) كما أن بها حتى الآن غديران (أو نبعان) ينطبق عليهما ما ورد في « الإلياذة » (٣) من وصف لمدينة طروادة والتبعين الذين ينسابا فيها أحدهما يحوى ماء ساخناً بينما الثانى مياهه باردة مثلجة .

ولكن « شليمان » لم يجد في هذه القرية ضالته المنشودة إذ أنها تبعد عن الشاطئ بمسيرة ثلاث ساعات في حين ذكر « هومير » عن أبطالهم انهم كانوا ينتقلون أكثر من مرة في النهار الواحد بين سفنهم وبين قلعة المدينة ، وضعف أمله تماماً عندما أراد زيارة النبعين السالقي الذكر فاذا به يجد ستة وثلاثين نبعا عددا بنفسه ثم فوجيء بالمرشد الذى كان يلزمه يؤكد له أنه قد أخطأ في العدد لأن هذا المكان به أربعون نبعا وأن الناس يطلقون عليه اسم « كبير كجيوز » أى « الأربعون نبعا » . ومع هذا كله حاول « شليمان » أن يتحقق مما ورد في « الإلياذة » وأسرع بشراء « ترمومتر » وأخذ يختبر بنفسه درجة حرارة كل نبع فوجد أنها جميعاً متماثلة ولا تزيد درجة حرارتها عن السبعة عشر درجة غير هذا وذاك لا حظ أيضاً أن التل هناك لا يحوى قطعة واحدة من الفخار المهشم ولقد قرأ أن جميع المدن القديمة ترك وراءها أكواماً لا حصر لها من الفخار المهشم .

(١) Schliemann, Heinrich "Archaeologische Forschungen" 1869.

(٢) « يونارباشى » قرية تقع على جبل « باليداغ » في الجزء الشمالى الغربى من بلاد الأناضول عند مدخل البسفور .

(٣) هومير — الأنشودة الثانية والعشرين من الإلياذة من ١٤٧ إلى ١٥٢ .

أقول قرأ لأن « شليمان » لم يكن من رجال الآثار أو التاريخ بل لم يكن له علاقة ما بالعلم أو بالعلماء . ولد عام ١٨٢٢ من أسرة فقيرة وما كاد يتعلم القراءة والكتابة حتى شغف بحب الليادة والأوديسية . وفي العاشرة من عمره قدم إلى أبيه كهدية في عيد ميلاد المسيح مقالة كتبت عن أهم أحداث حروب طروادة كما أنه كان يقبل بكل ما فيه من قوة على قراءة ما يقع تحت يده من مؤلفات عن هذه الفترة . وخرج من المدرسة في سن الرابعة عشر ولم يلبث أن التحق بجانوت بقالة في مدينة « فورتنبورج » ثم بدأت حياته تمر بصعاب كثيرة وسئم المعيشة في بلده وهاجر عام ١٨٤١ إلى هامبورج وتسلل في أحد الأيام إلى سفينة راسية بالميناء ولكن عاصفة هوجاء هبت في عرض البحر بعد إبحار السفينة وأغرقتها ونجا « شليمان » بأعجوبة ولم يلبث أن حصل على وظيفة صغيرة في أحد متاجر « امستردام » التي كان قد انتقل إليها لعله يحصل على عمل فيها . وبدأ يتصل بتجار من مختلف الشعوب يتحدثون بلغات متباينة فهوى دراسة اللغات ووجد نفسه يتعلم اللغة بعد الأخرى بسهولة واضحة فأتقن اللغات الهولندية والاسبانية والإيطالية والبرتغالية في فترة وجيزة لم تزد عن ستة أسابيع لكل منها فساعدته هذه الموهبة على التقدم في عمله وعلى أن يرقى سلم المجد بسرعة فائقة فنراه في عام ١٨٤٧ ولم يكد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره وقد أسس بيتاً تجارياً لنفسه فزادت ثروته وتضخمت مسؤولياته ولكنه في هذا الخضم من الأحداث لم ينس هوايته وهي « هومير » وما قاله عن « طروادة » . وفي عام ١٨٥٠ سافر إلى أمريكا الشمالية وبلغ في مركزه التجاري شأواً كبيراً جعل رئيس الجمهورية يدعو له إلى زيارته وفي نفس الوقت أرسل من أمريكا إلى أصدقائه خطابات يحدثهم فيها عن أوديسية هومير وإلياذته وعن تفكيره في استغلال ثروته الكبيرة في البحث عن طروادة والتعرف على المكان الذي كان مسرحاً لأحداث عصرها وأن حديث هومير هذا ليس بخرافة بل هو حقيقة واقعة ولكن أعماله الكثيرة ومسؤولياته المتعددة كانت تبعده عن تحقيق أمنيته هذه . وفي عام ١٨٥٥ رست سفينتان تحملان باسمه شحنتين كاملتين من الشاي في ميناء « ميمل » وإذا بحريق يشب ويأتي على كل ما تحويه مخازن هذا المرفأ

من سلع مختلفة ولم ينج من الحريق سوى سفينتي شليمان بشحنتيهما، وكان في ذلك ما جعله مليونيراً فاحش الثراء . وأخيراً في عام ١٨٦٤ وصلت ثروته حداً جعله يفكر في تصفية أعماله والعمل على تحقيق أمنيته الكبرى تلك الأمنية التي لازمته منذ طفولته والتي أخذت تهيمن على مشاعره ألا وهي البحث عن طرواده .

هذا هو شليمان الذي وصل إلى « بونارباشي » وفي يمينه ثروة لا حد لها وفي يساره نسخة من الالياذة والأوديسية لهوميير وفي قلبه إيمان عميق أنه سيحقق أحلامه وسيعثر على ضالته المنشودة « طرواده » .

إذن كانت المقارنات التي يقيمها « شليمان » بين ما ذكر عن أوصاف لمدينة طرواده في الالياذة وبين ما رآه في طبيعة قرية « بونارباشي » هي التي جعلته ينصرف عنها ويتجول في المناطق المتاخمة ولم يلبث أن وجد ضالته المنشودة في « حيسارليك » التي تبعد عن قرية « بونارباشي » بمسيرة ساعتين ونصف إلى الشمال والتي لا تبعد عن الشاطئ بأكثر من ساعة واحدة .

ومن بين المظاهر التي رجحت كفة « حيسارليك » عند شليمان أنها حوت تلاً عالياً قمته مسطحة وتكاد تكون مربعة ويبلغ طول ضلعها ٢٣٣ متراً وأن هذا التل ينحدر بميل متدرج حتى الشاطئ ثم وجد بعد التجربة أن مطاردة « اخيل » « هيكاتور » التي دار الإثنان إبانها ثلاث مرات حول المدينة يمكن أن تحدث بسهولة، إذ أنهما في هذه الحالة يكونان قد جريا ما يقرب من خمسة عشر كيلومتراً وهو ما يستطيعه أى محارب في مقتبل العمر . أما عن النبعين المائيين فقد عرف أن في الإمكان اختفاء مثل هذه الينابيع في أى منطقة بركانية .

استغرقت أبحاث « شليمان » الاستطلاعية أكثر من سنتين ولم يبدأ حفائره في « حيسارليك » إلا في ابريل عام ١٨٧٠ ومرت كشوفه فيها في مراحل أربعة توزعت بين عام ١٨٧٠ و ١٨٩٠ وكانت نتائج كشوفه ترسل بالبرق إلى ملوك أوروبا وتنشر يوماً بيوم في جميع الصحف السيارة كما كانت تقابل بشغف بالغ من جميع الطبقات .

سار شليمان في حفائره على أساس استقرار ما تحويه الطبقات المتتالية

من مخلفات بشرية واهتدى إلى وجود سبع طبقات حوت كل منها أطلالا للمدينة قديمة واعتبر الثانية منها لأطلال « طروادة » الهوميرية أو قلعة « بريام » وعثر فيها على كنوز أعتقد أنها كنوز « بريام » بالذات . كما وجد أن هذه المدينة القديمة التي احتوتها الطبقة الثانية كانت محصنة تحصيناً قوياً ولها تجارة واسعة استخدمت فيها الذهب والفضة والعاج . على أنه بعد موت شليمان بثلاثة أعوام تبين مساعده العلامة « دورنفيلد » (أى عام ١٨٩٣) أن طروادة الهوميرية هى المدينة التي احتوتها الطبقة السادسة . كما استطاع بعد ذلك أن يقيم تأريخاً كاملاً لكل طبقات « حيسارليك » التي وصلت معه إلى تسع طبقات ولا يزال هذا التأريخ يعتبر الدعامة التي يقوم عليه تأريخ حضارات أوروبا (١) . ولقد سار فيه على النحو الآتى :-

طروادة ١	من ٣٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق . م
طروادة ٢	من ٢٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م
طروادة ٣ - ٤ - ٥	من ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق . م
طروادة ٦ (الهوميرية)	من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق . م
طروادة ٧	من ١٠٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م
طروادة ٨	من ٧٠٠ ق . م إلى السنة الأولى ميلادية
طروادة ٩	من السنة الأولى ميلادية إلى ٥٠٠ ميلادية

ونحن لانشك مطلقاً في أن « شليمان » بطريقته الفذة في حنائه استطاع ليس فقط الكشف عن طروادة . بل تمكن أيضاً من أن يظهر لها تاريخاً حضرياً طويلاً وأصولاً ضاربة في القدم .

ولم يقتصر شليمان على حفائره في حيسارليك بل حفر أيضاً في « ميسينا » فيما بين عام ١٨٧٤ وعام ١٨٧٦ وكان أيضاً يبحث عن أهداف واضحة تأثر بها من قراءاته في هومير إذ ذهب إلى « ميسينا » ليعثر على مقبرتي « أجامنون » و « كليتمنسترا » مؤكداً أنهما لا يقعان خارج القلعة بل هما في وسطها ولقد عثر عليهما وهما من الطراز المبني على هيئة « خلية النحل » (٢) وكشف فيهما

(١) Dorpfeld, W. "Troja und Illion" (Athen 1902.)

(٢) Beehive Jombs

على كنوز هائلة . كما عثر بالقرب من « بوابة الأسدين » على مقابر من الطراز الذى يتكون من بئر عميقة تتسع عند قاعها على هيئة حجرة تحوى البهجة (١) ولقد بلغ تأثره بالمراجع القديمة أنه قد قرأ فى « باوزانياس » أن هناك خمساً من تلك المقابر فلم يكذب عثر على الخامسة منها حتى أوقف العمل بينما كانت هناك ست مقابر وعثر بالفعل على المقبرة السادسة بعد أن ترك شليمان منطقة الحفر . وكانت الكنوز التى عثر عليها فى هذه المقابر مثيرة وفاقت كنوز « بريام » إذ تضمنت أقداحاً من الذهب والنضة وسيوفاً مطعمة بالذهب وقلائد وخواتم وأنواع أخرى من الحلى الذهبية التى كانت ترشق بملابس الموتى وأقنعة ذهبية .

وكشف شليمان عام ١٨٨٠ على كنز « مينياس » فى « أرخومينوس » كما حفر فى عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ وكشف عن قصر « تيرنز » . ولقد كان باستمرار يعتقد أن كشوفه سواء تلك المقابر الخمسة أو مقبرتي « أجاممنون » و « كليتمنسترا » أو كنز « مينياس » فكلها ترجع إلى عصر هوميرو (٢) .

ولقد تعددت الآراء إزاء وسائل شليمان وكشوفه فبينما كان البعض يطعن فى إرجاع هذه الكشوف إلى العصر الهوميروى مؤكداً أنها ترجع إلى العصر المسيحى (٣) نجد أن البعض الآخر قد اقتنع بنظريته (٤) مشيداً بالأسس الوطيدة التى ابتدعها « شليمان » للبحث الأثرى العلمى والتى يمكن أن تطبق فى أى منطقة أثرية أخرى . وعلى كل حال من الواجب علينا : إنصافاً لهذا الرجل الفذ . أن نقسم نشاطه فى أعمال التنقيب إلى فترتين : -

(١) Shaft Graves

(٢) لقد كان شليمان ينشر نتائج تنقيباته بسرعة فائقة ولعل أعماله التجارية التى انغمس فيها إبان الطور الأول من حياته هى التى أكسبته هذه السرعة فى النشر فزاه ينشر الكتب الآتية التى ظهرت مباشرة بعد الانتهاء من الحفر :

- A. "Trojan Antiquities" 1874 B. "Mycenae" 1876.
C. "Illios" 1880. D. "Troja" 1884. E. "Orchomenos" 1887.

(٣) هناك عالم اسمه « كورتيوس » (Curtius) أكد أن أحد الأقنعة التى عثر عليها « شليمان » فى مقابر « ميسينا » كانت صورة للسيد المسيح عليه السلام .

(٤) Casson, "The Discovery of Man" 1939.

الأولى من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ والثانية من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٠ أى إلى موته . ونحن لا نشك أن الفترة الأولى قد ساد فيها حب الكشف الممزوج بالمغامرة ولم يستطع شليمان أن ينظم شؤونه ويقيم أبحاثه على أسس علمية إذ بقي يحفر في « حيسارليك » من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٣ بمفرده لا يعاونه في عمله سوى زوجته اليونانية . ثم من ١٨٧٤ - ١٨٧٦ قام بمساعدته بعض من اليونانيين الذين شعروا بغصة نحوه ولم يتعاونوا معه إلا تعاوناً سطحياً ثم في عام ١٨٧٩ عاونه رجلان هما « بيرنوف » و « فيرشوف » وكانا هما في حاجة إلى من يلقيهما أسس الحفر العلمي .

بينما في الفترة الثانية التي تبدأ من عام ١٨٨٢ نراه يفوز لمساعدته برجل عالم مدرب هو « دورفيلد » الذي امتازت أعماله بدقة العالم وحرصه على تدوين كل شيء والذي استطاع بخبرته كمهندس أن يكشف الطبقات على أساس استخدام القطاعات الواضحة .

على أية حال فليس من شك في أن كشوف « شليمان » قد هيأت الفرصة لدراسة عصور فجر التاريخ للحضارة الإغريقية - تلك الدراسة التي أتمتها بعثة المدرسة الإنجليزية بأثينا « The British School at Athen » فحفر باسمها « سير سيسيل سميث » عام ١٨٩٤ - ١٨٩٥ في منطقة « فيلاكوني » الواقعة على الشاطئ الشرقي لميلوس واتبع نفس الطريقة العلمية التي اتبعها « شليمان » في فترته الثانية في حفائر « حيسارليك » بدراسة محتويات الطبقات . فأتضح له صلة طبقته الثانية بحضارة « طروادة الثانية » بينما عثر في الطبقة الثالثة على مساكن من طراز الياينة الإغريقية يحتمل أنها إلى عصر حضارة ما قبل المسيينية .

٥ - البحث عن أصول الحضارة الإغريقية :

في نفس الوقت قام المتحف البريطاني بحفائر واسعة في قبرص دلت على وجود آثار ترجع إلى العصر البرونزي الأول ولها بعض الصلة بحضارة طروادة الثانية وإن كانت قد اتخذت لنفسها اتجاهاً مخالفاً^(١) . ولقد اتجه

(١) Murray, Smith and Walters ; "Excavations at Cyprus" 1900.

الترجيح إذ ذاك إلى أنه ليس من الممكن أن تقتصر الحضارة المسيانية على جزر الأرخيبيل وقبرص دون بلاد الاغريق . ولقد حققت الكشف فيما بعد هذا الترجيح .

ولقد تركزت أعمال البحث في بداية القرن العشرين في تتبع أصول الحضارة المسيانية التي كشفت عنها « شليمان » ومن أتوا بعده . وكان السؤال :- هل كانت هذه الحضارة من إنتاج بلاد الاغريق ذاتها أم وفدت عليها من الخارج ؟ وإذا كانت أصول هذه الحضارة وفدت من الخارج فهل أتت من آسيا الصغرى أم من كريت ؟

ولقد اتجهت الأنظار في بادئ الأمر إلى كريت التي اعتبرها « شليمان » الموطن الأول للحضارة الاغريقية . ولقد بلغ من تشجيع الباحث « سير آرثر إيفانس » بهذا الرأي (١) أنه وقف في عام ١٨٩٦ في ليفربول بمناسبة افتتاح دورة اجتماع قسم دراسة الإنسان بالجمعية البريطانية معلناً رأيه أن كريت هي الموطن الأول الحقيقي للحضارة الاغريقية إذ ظهر فيها ذلك الإنسان الأول الذي انتشر في كل أرجاء الوطن الاغريقي يتحدث نفس اللغة ويهدف إلى الحرية والعزة والكرامة ثم قال : « إن كريت اليوم تقف شامخة برأسها ضد المستعمر الذي أتاها من آسيا » ولم تأت سنة ١٨٩٨ حتى تعاونت الدول الغربية على إعطاء كريت استقلالها وإنهاء احتلال تركيا لها بعد أن أتاحت لها آثارها تلك السمعة العريضة .

وهكذا استطاع « إيفانس » أن يحظى بالإذن بالحفر في كريت عام ١٨٩٩ واختار منطقة « كفاللا » ولم تمر تسعة أسابيع على بدء الحفر حتى أكمل « إيفانس » الكشف عن مبنى عتيق يرجع إلى عصور فجر التاريخ أطلق عليه اسم قصر « مينوس » وتمكن بعد ذلك من أن يقيم نظرية أثبت بها أن كريت قد حظت بحضارة متقدمة هي « الحضارة المينوية » (٢) وأنها سابقة للحضارة المسيانية .

(١) Evans, Sir Arthur "Cretan Pictographs" 1894.

(٢) سمي « إيفانس » هذه الحضارة « بالمينوية » نسبة إلى « مينوس » وهو صاحب تلك الشخصية الكريتية التقليدية التي قامت بوضع « القوانين » التي سارت عليها البلاد .

وكشف « ايفانوس » في « كنوسوس » عن حضارة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث (١) إذ عثر على آثارها تحت أقدم مستويات العصر البرونزي بما يقرب من مترين ونصف . ولقد اهتم العلماء بهذه الكشف لروعتها الفنية ولعظمة أسلوبها المعماري .

لم يقابل « ايفانوس » في القرن العشرين بمثل ما قوبل به « شليمان » من نقد مر في أواخر القرن التاسع عشر . ويرجع ذلك إلى أن « ايفانوس » كان عالماً متمعقاً في الدراسات الأثرية من قبل أن يبدأ العمل كما كان خبيراً بطرق البحث . ولقد قسم « ايفانوس » حضارة كريت إلى فترات ثلاثة : — المينوية المبكرة والوسطى والمبكرة ثم قسم كل فترة منها إلى ثلاثة عهود . كما حاول ربط هذه الفترات بما يقابلها من عصور مصر الفرعونية على أساس بعض القطع التي لا نشك في أنها مصرية الصناعة والتي عثر عليها في « كنوسوس » ووجود بعض أوان مينوية في مقابر مصرية فضلاً عن كثرة ظهورها مرسومة على جدران المقابر المصرية — حقيقة غالى « ايفانوس » في تأريخ حضارات كريت إذ دفع بالعصر الحجري الحديث إلى الفترة ما بين ١٢ ألفاً و ١٠ آلاف ق . م وأرخ الحضارة المينوية المبكرة فيما بين ٣٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق . م في حين أن الأبحاث الحديثة تختم تعديل هذا التأريخ بحيث يصبح العصر الحجري الحديث حوالي عام ٤٠٠٠ ق . م والحضارة المينوية المبكرة حوالي ٣١٠٠ إلى ٢٧٠٠ ق . م والحضارة المينوية الوسطى حوالي ٢٠٠٠ ق . م . ولا يزال العلماء حتى الآن يبحثون في لغة هذه الحضارة والأصل الذي صدرت عنه فضلاً عن البحث في منشأ الحضارة المينوية ذاتها والأصل الذي نبعت منه .

٦ — الكشف الأثرية في بلاد الأناضول :

لقد كانت بلاد الأناضول هي الأخرى مركزاً لنشاط أثرى منذ أوائل القرن الثامن عشر هدفه البحث عن أصل سكان هذه البلاد وهل هم الحيثيون

(١) لقد كان العالم الغربي متشوق إلى سماع أخبار كشف « ايفانوس » في كريت خاصة بعد أن هدأت أخبار كشف شليمان في بلاد اليونان . ولقد صدرت عدة كتب عن هذه الكشف أهمها :

Borrow, R.M. "The Discoveries in Crete and their bearing on the History of Ancient Civilisation" 1907.

Evans, Sir Arthur ; "The Palace of Minos at Knossos" 4 vols. 1921-1935.

الذين ذكرهم التوراة ولعل أول ما وصل إلى معرفتنا عن الحيثيين كان ذلك النقش الذى عثر عليه « جان أوتر » فى « ابريز » فى جنوب « كبادوشيا » فى عام ١٧٣٦ كما أن « بورخاردت » كشف عام ١٨١٢ عن واحد من نقوش « هامات » . ولكن هذه الكشف وأخرى غيرها لم تكن قد جذبت أنظار العلماء فى ذلك الوقت وبقي الحال هكذا حتى عام ١٨٦٠ حين كشف « جورج بيروت » فى « بوغاز كوى » أطلالا للمدينة واسعة امتازت بتحسيناتها المنيعه وعثر فيها على تماثيل تحالف فى أسلوبها الفنى كل ما عرفه العالم من تماثيل القدماء التى ظهرت فى مصر أو بلاد العراق أو فى اليونان . ومنذ ذلك الوقت دخلت بلاد الأناضول فى خيط الأبحاث الأثرية وسلط العلماء عليها الأنوار وأخذت البعثات تذهب إليها للقيام بأعمال الحفر والتنقيب للكشف عن ماضيها وعن أصل سكانها القدماء خاصة بعد أن قرر « بيروت » بأن التماثيل التى عثر عليها فى « بوغاز كوى » هى صناعة لفنانين لا نعرف عنهم شيئاً كما أن « بورتن » اعترف بأن نقوش « هامات » لا يمكن قراءتها أو فهم معانيها (١) .

عرف العالم لأول مرة أن بلاد الأناضول هى الموطن الأصلي لشعب « الحيثيين » الذين ذكرتهم التوراة — عندما اقترح « رايت » (وهو من رجال التبشير الذين كانوا يحبون الشرق الأدنى والذى كان فى دمشق فى ذلك الوقت) أن الفنانين الذين قاموا بصنع تماثيل « بوغاز كوى » وأن النقوش المعروفة باسم « هامات » هى من إنتاج شعب الحيثيين (٢) ثم ظهر بعد ذلك كتاب آخر لأستاذ الدراسات الآسيوية فى اكسفورد « سايس » حاول فيه أن يبرز كل ما عثر عليه المنقبون من آثار لهؤلاء الحيثيين (٣) .

وكان القرن العشرون هو قرن الكشف الحقيقى فى بلاد الأناضول إذ تكونت بعثة علمية من علماء المان وأترك فى عام ١٩٠٦ تحت إشراف « هوجو فينكلر » وأخذت تكشف عن المنطقة التى كان « بيروت » عام ١٨٦١ قد عثر

(1) Burton, Richard ; "Unexplored Syria" 1872.

(2) Dr. Wright, W. ; "The Empire of the Hittites" 1884.

(3) Sayce, A.H. ; "The Hittites, the Story of a Forgotten Empire" 1888.

عليها في « بوغاز كيوى » . وتمكنت هذه البعثة بأبحاثها أن تثبت بأن هذه المدينة هي « خاتوساس » عاصمة دولة الحيثيين كما أنها عثرت على آلاف من الألواح تضمنت مراسلات الشؤون الخارجية للدولة فيما بين ١٣٥٠ و ١٣٠٠ ق.م. وتناولت المصريين والبابليين والقبرصيين كما ذكرت ذلك الشعب الذى سكن الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى والذى نتعارف على تسميته الآن باسم الآحيين . وهذه الذخيرة الهائلة من النصوص هى التى دفعت بالدراسات اللغوية إلى الأمام بعد أن تمكن « هير وزنى » من التعرف على مفتاح هذه اللغة ووصل إلى الكثير من فهم ألبازها (١) ولم تحل سنة ١٩٢٢ حتى أصبحنا على دراية كاملة بما حوته هذه النصوص السالفة الذكر (٢) .

وفى نفس الوقت أخذ بعض العلماء يحفرون فى مناطق أخرى من بلاد الأناضول فنقب « فون لوشان » الألمانى فى منطقة « زنجرى » (٣) كما قام « جارسنيج » بحفائر واسعة فى « ساكاجوزى » (٤) استمرت أكثر من أربعين عاماً بدأت منذ عام ١٩٠٧ وبدأت البعثة التى أرسلها المتحف البريطانى للبحث فى منطقة « قرقاميش » التى تعتبر من المراكز الجنوبية للحضارة الحيثية واشترك فى البحث كل من « هوجارت » و « لورنس » و « وولى » (٥) .

وكدأب الأثريين . لا يبالغون طبقة حتى ينقبوا فيما وراءها . اتجه بحثهم بعد التعرف على حضارة الحيثيين إلى البحث عما سبقها أو مهد لها من حضارات ولقد اتخذ بحثهم ذلك مراحل متعددة وخاصة بعد أن كشف « شانتر » (٦) عام ١٨٩٣ عن نوع متميز من فخار ملون فى « اورثا هايوك » أطلق عليه اسم

(١) Hrozny, Friedrich ; "Die Sprache der Hethiter" 1917.

(٢) Contenau, G. ; "Eléments de Bibliographie Hittite" 1922.

(٣) Cowley, A.E. ; "The Hettites" 1920.

(٤) Garstang' J. ; "Hittites" 1929.

(٥) Wooley, Lawrence and Hogarth ; "Carchemish" ; Report on the Excavations at Djerabis" 1914-1921.

(٦) Chantre "Recherches, Archéologiques dans l'Asie Occidentale : Mission en Cappadoce" 1898.

الفخار « الكابادوكي » قارنه « مايرز » عام ١٩٠٣ بفخار قبرص وصقلية وتساليا الذي يرجع إلى العصر البرونزي ثم في آخر الأمر نجد أن « جارستن » يخرج علينا بتأريخ لعصور فجر التاريخ في الأناضول أقامه على أساس ما عثر عليه من فخار في حفائر « ساكاجوزي » وانتهى إلى تقسيمه إلى أربع فترات (١) :

١ - العصر الحجري الحديث المبكر .

٢ - العصر الحجري الحديث المتأخر .

٣ - عصر الفخار الملون المبكر .

٤ - عصر الفخار الملون المتأخر .

وهو يقارن فخار العصر الحجري الحديث الذي يتميز بلونه الأسود وبعض الزخارف المحفورة والملونة باللون الأبيض بما يماثله من فخار طروادة وكريت بينما يقارن الفخار الملون وخاصة في عصره المبكر بما يماثله من فخار « سوسة » في إيران و « أناو » في « التركستان » .

على أن المعنيين بدراسات فجر التاريخ في الأناضول ظلوا يتطلعون إلى كشف أثرى في وسط البلاد أو في شرقها يقارن بأعمال « شليمان » و « دوريفيلد » في طروادة . ولقد تكفلت بتحقيق هذا الهدف بعثة معهد شيكاغو للدراسات الشرقية التي بدأت تنقيباتها عام ١٩٢٦ ونجحت في تسجيل نحو من ٣٠٠ موضع أثرى جديد على أن أهم ما يذكر للقائمين بهذه التنقيبات وعلى رأسهم كل من « شميدت » و « فون - در - أوستن » هو قيامهم بكشف علمي دقيق في تل « أليشار » الذي يقع إلى الجنوب الشرق من أنقره بما يقرب من ١٢٨ ميلا . وكان هذا التل يرتفع إلى ما يزيد عن ثلاثين متراً وبذلك هياً فرصة نادرة لتتبع طبقاته ودراسة محتويات كل طبقة بعناية ودقة . ولقد قام كل من « شميدت » و « فون - در - أوستن » بهذا العمل بطريقة تدعو إلى الدهشة والإعجاب (٢) وانتهت أبحاثهما إلى تمييز أربع طبقات حفريّة :

(1) Garstang, J. "The Land of the Hittites" 1910.

(2) Von der Osten and Schmidt ; "The Alishar Huyuk Excavations" 1927-1932 (Oriental Institut Publications, 8 vols. 1930-37).

١ - « أليشار » (١) وهي تعادل عصر بداية استعمال المعادن حوالى ٤٠٠٠ ق. م.

٢ - « أليشار » (ب) وهي تمثل عصر استعمال النحاس وتؤرخ بحوالى ٣٠٠٠ ق. م.

٣ - « أليشار » (ج) وهي تمثل بواكير عصر استعمال البرونز وتؤرخ بحوالى ٢٤٠٠ ق. م.

٤ - « أليشار » (د) وهي تعاصر قيام الدولة الحيثية وتؤرخ بحوالى ٢٠٠٠ ق. م.

وشارك الأتراك فى البحث الأثرى فاضطلع « حميد زبير كوزاى » مدير الآثار فى تركيا بحفائر فى منطقة « الاكا هيوك » (١) التى تبعد بما يقرب من ٦٠ كيلومتراً إلى الشمال من « بوغاز كيوى » ولقد عثر فى أدنى مستوياتها على حضارة تمثل عصر بداية المعادن وتقارن بحضارة « أليشار » (١) كما كشف عن مدافن اعتبرها معاصرة للعصر النحاسى (حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) بلغ عددها ثلاث عشرة مقبرة يعتقد أنها لأفراد أسرة ملكية وضعت جثة كل منهم فى آنية كبيرة وعثر فى كل مقبرة على أنواع من الحلى بلغت من الثراء وأسلوب الصناعة ما يجعلها تقارن بمقابر ملوك « أور » فى بلاد العراق (٢) . ونشط التنقيب فى العشرين سنة الأخيرة فى جنوب شرق الأناضول وتركز البحث فى ثلاث مناطق :

١ - منطقة « مرسين » فى سهل « كليكييا » حيث حفر « جارسنتنج » عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ وتمكن من أن يحقق الكثير من حضارات عصور فجر التاريخ لبلاد الأناضول (٣) ولقد ساعده فى تأريخه أن التل حوى ست عشرة

(1) Arik, R.O. ; "Les Fouilles d'Alaca Hoyuk" (Rapport préliminaire sur les travaux en 1935 ; Publications de la Soc. d'Hist. Turque, Ankara 1937 .

(2) Kosay, Dr. Hamit Zubeyr ; London Illustrated News July 21th, 1945, P. 78 ff.

(3) Garstang, J. ; "Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology" 1937-1940.

طبقة رد الطبقات الخمسة من ١٢ إلى ١٦ إلى عصر استعمال المعادن (العصر الكالكيوليتي) بحيث تعاصر الطبقة الثانية عشر عام ٣٠٠٠ ق . م بينما الطبقة السادسة عشر وهي تعاصر حضارة « تل حلف » في العراق وترجع إلى حوالي عام ٣٦٠٠ ق . م .

غير هذا فقد عثر « جارسنتنج » أسفل الطبقة السادسة عشر على مخلفات بشرية تمت إلى حضارة تسبق حضارة « تل حلف » وهي تمثل حضارة العصر الحجري الحديث ^(١) وقد دفع بها « بوركيت » إلى ٥٥٠٠ ق . م .

٢ - منطقة « اتخانا - الااخ » بالقرب من مدينة حلب ولقد تبين فيها « وولى » (١٩٤٦ - ١٩٤٧) أقدم العواصم الحثيية بدأ عمرانها حوالي ٢٠٠٠ ق.م ودمرت حوالي ١٢٠٠ ق . م ومرت فيما بين ذلك بتسع مراحل متميزة من العمران ^(٢) وما يدعو إلى الدهشة أن « الااخ » لم تحو ما يدل على أنها شيدت قبل العصر النحاسي بينما عثر « وولى » في تل صغير يبعد ٣ كيلومترات إلى الغرب منها على مخلفات ترجع إلى العصر « الكالكيوليتي » وتقارن بحضارة « مرسين » .

٣ - منطقة « كاراتبة » التي تقع عند سفح سلسلة جبال الطوروس حيث يفتح نهر « جيهان » مجراه ليصل إلى سهل أذنه ولقد تبين أنها تحوى مدينة حثيية تذكرها النصوص باسم « دانونا » كما دلت آثارها على وجود تأثيرات مختلفة ايجية ولذلك يرجح البعض أنها هي مدينة « دانوى » التي تحالفت مع « الآخيين » في « طروادة » .

والصورة الأخيرة التي كونها « فون - در - أوستن » عن حضارة فجر تاريخ الأناضول أنه في عصر بداية استعمال المعادن (العصر الكالكيوليتي) يتضح لها شقان : شق في غرب الأناضول ويقابل « طروادة الأولى » وينتمى إلى حضارات البلقان والآخر في وسط الأناضول تمثله حضارة « أليشار » (١) ويقرن بحضارات الأرض السوداء .

(1) Burkitt, M.C. , "The Earlier Cultures at Mersin" in : Liverpool Annals of Arch. and Anthropol." 1939.

(2) Scharff, A. und Moortgat, A. ; "Aegypten und Vorder asien im Altertum" Muenchen 1950 Seite 374 ff.

وللأناضول في تطور حضاراتها إبان العصر النحاسي نفس الثنائية ويعتقد « فون - در - أوستن » أنها تمثل تطوراً رتيباً في غرب الأناضول قام على أساس حضارتها في « العصر الكالكيوليتي » بينما في شرق الأناضول تعتبر حضارة العصر النحاسي حضارة جديدة لا تتصل بما سبقها .

٧ - الكشف الأثرية في فلسطين وسوريا :

لقد كانت البحوث الأثرية التي تمت في فلسطين تقوم على تحقيق ما ورد في التوراة عن مدن هذه المنطقة . إلا أن العلم الحديث دفع بالعلماء إلى استقصاء ما كانت عليه حضارة الإنسان الأول الذي سكن هذه البلاد في عصور فجر التاريخ ولإقامة المقارنات بين تطور حضارته وما حدث في مصر وبلاد العراق في عهود معاصرة .

ولقد بدأت الأبحاث العلمية في فلسطين على أثر تكوين « الجمعية الأثرية لفلسطين » (١) في لندن عام ١٨٦٥ وكانت باكورة هذه الأبحاث القيام بتسجيل للآثار الظاهرة فوق سطح الأرض أما التنقيبات فلم تبدأ إلا عام ١٨٩١ في « تل الحيسى » بإشراف الأستاذ بترى وفي عام ١٩٠٢ في منطقة « جازر » حيث عثر « ماكاليستر » على كهوف سكنها إنسان العصر الحجري الحديث وكان بعضها من صنع الإنسان في ذلك الوقت كما أثبت أن إنسان العصر البرونزي استعمل بعض هذه الكهوف لدفن موتاه وأخذ في تشييد مدينة تعتبر السلف القاييم لمدينة « جازر » التاريخية (٢) .

ومن المدن الأخرى التي دل التنقيب على أنها ترجع إلى العصر البرونزي المبكر هي « مجدو » (تل المتسلم) ولقد قامت بعثة المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في عام ١٩٢٥ بحفائر واسعة النطاق في هذه المنطقة وكشفت عن كثير من أجزاء المدينة وأثبتت أنها عمرت بسكانها حتى آخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث

(1) The Palestine Exploration Fund.

(2) Macalister, R.A.S. ; "The Excavations at Gezir" 1912.

دمرت تماماً . ووفق « جوردون لاود » عام ١٩٣٧ إلى العثور على قصور
الأمراء الذين حكموا المدينة باسم فراعنة مصر (١) .

ومن مدن التوراة القديمة التي عمل البحث الأثرى على تحقيقها كانت
« لاكيش » ولقد ظل تحديد مكانها موضع جدل بين الأثريين . إذ نسبت
في أول الأمر إلى « أم لاكيس » الحالية ولكن بترى عارض هذا الرأي وأكد
أنها هي « تل الحيسي » حيث حفر عام ١٨٩١ واتفق الرأي الآن أنها هي
« تل الدوير » حيث قامت بعثة « ولكوم - مارستون » للأبحاث الأثرية
بالتنقيب عام ١٩٣٣ (٢) واتضح فيها مرحلة لسكنى الكهوف في عصر البرونز
المبكر ثم تلتها مرحلة قيام المدينة . ولقد كان مما عثر عليه فيها طاس صغيرة
في أطلال معبد صغير من عصر البرونز نقش عليها نقوش بالكنعانية المبكرة
التي تمثل حلقة الاتصال بين السامية والأبجدية الفينيقية (٣) .

أما في شمال سوريا فقد كشف التنقيب عن تاريخ واحدة من أهم المدن
السورية وهي « راس شمرة » (شمالاً اللاذقية وفي مواجهة قبرص) وقد اتضحت
لها سلسلة طويلة من حضارات متتابعة ترجع إلى العصر الحجري الحديث إذ عثر
« شيفر » فيها على فخار يشابه فخار حضارة « مرسين » بجنوب الأناضول
من العصر الحجري الحديث كما عثر كذلك على نوع آخر من الفخار قارنه
بفخار نينوى وتل حسونة في بلاد العراق .

ولقد تبين لهذه المدينة أن تقوم بدور الميناء الدولي بين شعوب البحر المتوسط
القديمة وذكرتها مراسلات تل العمارنة تحت اسم « اوجاريت » وقد دمرها زلزال
عنيف في منتصف القرن الرابع عشر ثم ارند إليها عمرائها حتى دمرتها شعوب
البحار فيما بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر .

ولقد عثر فيها على مكتبة حوت المئات من الألواح الصلصالية كتبت

(1) Loud, Gordon ; "The Megiddo Ivories" 1939.

(2) Wellcome-Marston Archaeological Expedition

(3) Tufnel, Inge and Harding ; "Lachish" II (Tell ed Duweir) The Fosse
Temple 1940.

فصوصها بالأبجدية الأسفينية التي اعتبرت أقدم أبجدية معروفة كتبت بلغة سامية . وهيات هذه الألواح بموضوعاتها القريبة من قصص التوراة ولغتها القريبة من الفينيقية من ناحية ومن العبرية من ناحية أخرى مجالا واسعا للبحوث اللغوية والتعليقات (١) .

وأريحا مدينة أخرى عتيقة قام بالكشف عنها بطريقته العلمية الفذة « جارسنتج » متبعا نظام دراسة طبقاتها المختلفة وكشف فيها عن عمران متصل شغل سبع عشرة طبقة يمثل العصر الحجري الحديث منها ما بين الطبقة العاشرة «السابعة عشر . ولقد قسم « جارسنتج » هذه الطبقات إلى ثلاث فترات :

الأولى — الطبقات من العاشرة إلى السابعة عشر : فيما بين ٤٥٠٠ — ٤٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجري الحديث الأول .

والثانية — الطبقة التاسعة : فيما بين ٤٠٠٠ — ٣٥٠٠ ق . م وهو العصر الحجري الحديث الثاني ويعاصر حضارة « تل حلف » .

والثالثة — الطبقة الثامنة : فيما بين ٣٥٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجري الحديث الثالث المعاصر لحضارات « العبيد » و « جمدة نصر » .

وفي عصر البرونز المبكر أخذت « أريحا » تظهر كمدينة عامرة بالسكان (٢) ولقد تمكن من أن يثبت لها أربع فترات للعمران تتابعت إلى أن دمرت في عام ١٤٠٠ ق . م .

ولقد أدى تعاقب البحوث الأثرية في فلسطين وسوريا إذن إلى إبراز صورة متصلة لتتابع حضارى يبدأ في العصر الحجري الحديث وتمثل حضارته في أريحا ورأس شمرة وبضعة مراكز أخرى . ثم تعقبه حضارة عصر بداية المعادن ويمثلها المستوى الثامن في أريحا ثم يلي ذلك عصر البرونز الكنعاني ويمثل

(1) Schaeffer, Claude, F.A. "Ugaritica, études relatives aux découvertes de Ras Shamra" 1939.

Cf. "Schaeffer ; "Stratigraphie Comparée et Chronologie de l'Asie Occidentale" 1948.

(2) Garstang, J. ; "The Story of Jericho" 1940.

مرحلة التطور إلى المدن التي ازدهر بعضها فقام بدور هام في التبادل التجارى بين مصر جنوباً والحيشين شمالاً ودويلات بلاد ما بين النهرين شرقاً وسكان جزر بحر الأرخبيل غرباً .

وعلى نحو ما حقق التنقيب قيام هذه المدن حقق كذلك ما أصابها من دمار على أيدي الغزاة المختلفين فيما بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م ولقد كان منهم من وفد من الشمال والغرب ومنهم من وفد من الجنوب وهؤلاء الغزاة الأخرى هم الاسرائيليون .

إن قصة الكشف الأثرية قصة طويلة متشعبة وأرجو أن أكون قد وفقت في اختيار أهم هذه الكشوف وفي سرد الأحداث التي ميزت فترات هذه الكشوف وما كان يسود كل فترة من عوامل مختلفة أفسدت علينا تارة نتائج التنقيبات إلا أنها تارة أخرى أسدت إلينا من القوائد الجمة ما جعل المؤرخين على استطاعة من أن ينفذوا إلى ظلمات الماضى السحيق فينبرونه ويتعرفون على مدى ما وصل إليه أجدادنا من البشر من التقدم في حضاراتهم المختلفة .

عبد المنعم أبو بكر